ساسسلت القصية العالمية



ماشادودی آسیس سرجست خسلیل کلفت



والرالياس العصيتين ت



الحيثة العامة لمكتبة الاسكسدية
رقم العند:
رقم التسجيل:
0,

مشدودي اسيس السراية الخضراء

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered vers

دار الياس العصرية ١ شارع كنيسة الروم الكاثوليك – الظاهر – القاهرة

رقم الايداع بدار الكتب : م١٩٩١/١٩٧٢ الترقيم الدولي: ISBN: 972 5028 01 9 nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سلسلة القصة العالبة

ماشادو دی اسیّس

السراية الخضراء

(رواية قصيرة) ترجمها عن الإنجليزية خليل كلفت

شركة دار الياس العصرية للطباعة و النشر القاهرة



١

كيف حصلت إناجواى على مستشفى للإمراض العقلية

تروى سجلات أحداث إتاجواى أنه عاش فيها ، مُنذ زمن بعيد ، طبيب من أصل نبيل – سيمون باكامارته – وأنه كان واحداً من أعظم الأطباء في سائر أنحاء البرازيل والبرتغال وأسبانيا ومستعمراتها . كان باكامارته قد درس سنوات عديدة في كل من باذوا وكويمبرا ، وعندما أعلن ، في الرابعة والثلاثين من عمره ، قراره بالعودة إلى البرازيل وإلى بلدته إتاجواى ، حاول ملك البرتغال أن يُثنيه عن عزمه فعرض على باكامارته أن يختار بين رئاسة جامعة كويمبرا ومنصب المفوض الرئيسي لشؤون الحكومة ، اعتذر الطبيب بأدب ،

قال لجلالته: " العلم منصبى الوحيد ؛ وإتاجواي عالمي " .

استَانَف إقامته هناك وكَرُّس نفسه لنظرية وممارسة الطب ، وجعل يمارس العلاج تارةً والدراسة والبحث تارةً أخرى ؛ ويُثْبِت النظريات بواسطة الكمادات،

عندما بلغ باكامارته عامه الأربعين تَزوَّج من أرملة أحد القضاة المتجوّلين . كان اسمها دونا إقاريستا داكوستا إي ماسكارينياس ، ولم تكن جميلة أو جذّابة . ساله أحد أعمامه – وكان رجُلاً صريحاً – لماذا لم يَقُم باختيار امرأة أكثر جاذبية . أجاب الطبيب بأن دونا إقاريستا تتمتع بهضم مثالي ، ونظر ممتاز ، وضغط دم طبيعي ؛ وليست مصابة بأي أمراض ذات بال وكان تحليل بولها سلبياً . وكان من المحتمل أن تمنحه أطفالاً أصحاء أقوياء . ولأن دونا إقاريستا كانت تملك ، إلى جانب مأثرها الفسيولوجية ، وجهاً يتالف من ملامح لا هي جميلة بأخذ كل منها على انفراد ولا هي

متناسقة مأخوذةً معاً ، فقد حمد الله على ذلك ، لأنه لن تُغريه التضحية باهتماماته العلمية في سبيل تأمُّل مفاتن زوجته .

لكنّ دونا إقاريستا فشلت في تحقيق تُوقُعات زوجها . فهي لم تُنجب أي أطفال أقوياء كما أنها لم تنجب ، لنفس السبب ، أي أطفال ضعفاء . والمزاج العلمي صبور بطبيعته ؛ وقد انتظر باكامارته ثلاثة ، أربعة ، خمسة أعوام – وفي نهاية هذه الفترة بدأ دراسة شاملة عن العقم – أعاد قراءة أعمال جميع أساطين الطبّ (بما فيهم العرب) وبعث باستفسارات إلى الجامعات الإيطالية والألمانية ، وأخيراً نصح بنظام غذائي خاص . ولكن دونا إقاريستا – التي كانت تتغذي على وجه الحصر تقريباً على لحم خنزير إتاجواي الشهي – لم تلق بالاً إلى ذلك ؛ وإلى هذا الافتقار إلى الطاعة الزوجية – المفهوم لكن المؤسف – ندين بالانقراض الكلّي للسلسلالية الباكامارتية .

والحقيقة أن الاهتمام بالعلم يكون هو ذاته علاجاً أحياناً . وقد عالج الدكتور باكامارته نفسه من خيبة أمله عن طريق الغوص أعمق في عمله . وكانت تلك الفترة هي التي جذب فيها اهتمامه فرع جديد من فروع الطب علم أمراض النفس . ولم يكن بوسع المستعمرة بأسرها بل المملكة ذاتها أن تتباهى بامتلاك أحد الثقاة في هذا الموضوع . والواقع أنه كان مجالاً لم يبذل فيه سوى القليل جداً من العمل المسؤول في أي مكان في العالم . وقد رأى سيمون باكامارته أن أمام العلم اللوزيتاني * ، والبرازيلي بوجه أخص ، فرصة لأن يتوج رأسه « بأمجاد باقية » – وهذا تعبير استخدمه هو ذاته ، لكن فقط في لحظة نشوة وداخل جدران بيته ؛ أما إزاء العالم الخارجي فكان دائماً شديد التواضع شديد ضبط النفس ، كما يليق برجل علم .

" صحة الروح ! " هتف باكامارته . " إنها أسمى غاية ممكنة لطبيب " .

" بالنسبة لطبيب عظيم مثلك أنت ، نعم " . جاء هذا التصحيح من

^{*} نسبة إلى لُوزيتانيا إحدى مقاطعات أسبانيا الرومانية و تشمل أراضى البرتغال الحالية - المترجم ،

كريسيين سواريس ، صيدليّ البلدة وأحد أعزّ أصدقاء باكامارته .

وينتمى مستجلو الاحداث باللوم على مجلس بلدة إتاجواى على إهمائه المرضى عقلياً . كان المجانين الخطرون يُحبسون في بيوتهم ؛ وكان المجانين المسللون يُتركون مُطلقى السراح تماماً . ولم يتلق أي منهم ، لا الخطرون ولا المسللون ، أية رعاية من أي نوع . اقترح سيمون باكامارته تغيير هذا كلّه . قرّر أن يبنى مصحة عقلية وطلب من المجلس صلاحية استقبال ومعالجة كافة المرضى عقلياً في إتاجواى والمناطق المحيطة بها . على أن يدفع له أهل المريض أو – إذا كانت الأسرة فقيرة جداً – المجلس ، أثار الاقتراح دهشة وفضولاً في كل مكان في البلدة . وكانت هناك معارضة كبيرة ، فمن الصعب دائماً أن نستأصل شافة الطريقة المستقرة لتسيير الأمور ، مهما تكن تلك الطريقة سخيفة أو شريرة . إن مجرد فكرة جعل المجانين يعيشون معاً داخل نفس البيت بدت عَرضاً من أعراض الجنون ، كما لمح كثيرون ... حتى لزوجة الطبيب .

" انظرى يادونا إقاريستا "، قال الأب لوپيس، القسيس المحلّى، " فكّرى فيما إذا لم يكن بمقدورك أن تجعلى زوجك يأخذ إجازة قصيرة، ربّما في ريو دى چانيرو. كل هذه الدراسات المكتّفة، يمكن للمرء أن يقوم بالكثير جداً منها وعندئذ فإن عقله ... "

فزعت دونا إقاريستا . ذهبت إلى زوجها وقالت أن لديها رغبة حارقة في القيام معه برحلة إلى ربو دى چانيرو . وقالت أنها سوف تأكل هناك كلّ ما اعتقد هو أنه ضرورى لبلوغ هدف بعينه . ولكنّ الطبيب الداهية أدرك في الحال فيم كانت زوجته تفكّر فأجاب بأنها لا ينبغي أن تخشى شيئاً . ثم ذهب إلى دار البلدية ، حيث كان المجلس يناقش اقتراحه ، الذى دعمه هو ببلاغة بحيث تمت الموافقة عليه دون تعديل في أول اقتراع . كما أقر المجلس ضريبة مخصصة الإنفاق على إيواء ، وإعالة ، وعلاج المجانين المحلّيين . وكان هذا ينطوى على مشكلة صغيرة ، ذلك أن كل شئ في إتاجواى كانت تُجبّى عليه ينطوى على مشكلة صغيرة ، ذلك أن كل شئ في إتاجواى كانت تُجبّى عليه الضرائب فعلاً . وبعد دراسة متأنية قرر المجلس استعمال شارتَى امتياز على الخيل التي تَجر عربة جنازة . وعلى كلّ شخص يود الاستفادة بهذا الامتياز أن يدفع ضريبة بمقدار مُقرَّد عن كل ساعة ابتداء من وقت حدوث الوفاة حتى

rted by TIII Combine - (no stamps are applied by registered version)

انتهاء الشعائر التى تُؤَدِّى على القبر . وقد طلب من أمين سجلات البلدة أن يحدّد الدخل المحتمل من الضريبة الجديدة ، غير أنه تاه فى العمليات الحسابية ، واقترح أحد أعضاء المجلس – وكان معارضاً لمشروع الطبيب – إعفاء أمين السجلات من مهمة لا طائل تحتها .

" الحسابات غير ضرورية " ، قال ، " لأن مشروع باكامارته لن يتم تنفيذه أبدأ . من سمع بحق السماء عن وضع مجموعة من المجانين معا في ست واحد ؟ "

لكن العضو المحترم كان مخطئاً . فقد بنى باكامارته مستشفاه المجانين في الشارع الجديد ، أجمل شارع في إتاجواي . وكان للمبنى فناء في الوسط ومائتان من غُرف عَزْل المرضى لكُلّ غُرْفة منها نافذة . وقع الطبيب ، وهو دارس شفوف التراث العربي ، على نص يعلن أن المجانين مقدسون ، لأن الله حرمهم من العقل فحماهم من ارتكاب المعاصى . وجد باكامارته هذه الفكرة جميلة وعميقة في أن معاً ، ونقش النص على واجهة المستشفى . غير أنه خشى من أن هذا قد يُغضب القسيس و – من خلاله – الأسقف . وعلى هذا ، نسب الاقتباس إلى بنيدكت الثامن ،

سنينّ المصحة العقلية السراية الخضراء ، لأن نوافذها كانت أول ما شوهد بذلك اللون في تاريخ إتاجواى ، واحتفل بالافتتاح الرسمى احتفالاً رائعاً . أقبل الناس من كل أنحاء المنطقة ، بل جاء بعضهم من ريو دى چانيرو ليشهدوا الاحتفالات التى دامت سبعة أيام . وكان بعض المرضى قد تم قبولهم فعلاً وانتهز أقاربهم هذه الفرصة ليؤكّوا العناية الأبوية والمحبة السيحية اللتين عوملوا بهما . أمّا دونا إقاريستا فقد غَطّت نفسها – مبتهجة بمجد زوجها – بالحرير ، والحليّ ، والزهور . كانت ملكة حقيقية خلال تلك بمجد زوجها - بالحرير ، والحليّ ، والزهور . كانت ملكة حقيقية خلال تلك الأيام المشهودة . أتى الجميع لزيارتها مرتين أو ثلاث مرات . ولم يتودد إليها الناس وحسب بل امتدحوها ، لانهم – وهذا الواقع يضفى شرفاً عظيماً على مجتمع ذلك الزمن - فكّروا في دونا إقاريستا في علاقتها بالروح السامية والهيبة العالية لزوجها ؛ وقد حسدوها ، دون شكّ ، ولكنه الحسد النبيل والمبارك الذي ينطوى عليه الإعجاب .

سيَلُ لا ينقطع من المحانين

بعد ذلك بثلاثة أيام ، وفيما كان يتحادث بمزاج منبسط مع الصيدلي كريسيين سواريس ، أخذ الطبيب يبوح بأخص أفكاره .

" المُحَبِّة ، ياسواريس ، تدخُل في منهجي دُون شكّ . إنها مثل التوابل لطبخة ، وأنا أفسر بهذا المعنى كلمات القديس بولس إلى الكورنثيين : " لَوْ... كُنتُ عالماً بجميع الأسرار والعلم كله ... وليس عندى محبَّة ، لكنت لا شيئاً ". غير أن الشي الرئيسي في عملي في السّراية الخضراء هو أن أدرس الجنون أعمق دراسة ، وأن أعرف مختلف درجاته ، وأن أصنّف مختلف الحالات ، وأخيراً أن أكتشف سبب هذه الظاهرة وعلاجها . هذا ما يتمنّاه قلبي . وأعتقد أنه يمكنني بهذه الطريقة أن أسدى خدمة جليلة إلى الإنسانية " .

" خدمة عظيمة " ، قال كريسيين سواريس .

" بدون هذه المصحة العقلية " ، واصل الطبيب ، " أعتقد أنني ريّما كنت حققت القليل . ولكنها توفّر لأبحاثي مجالاً وفرصة أكبر كثيراً مما كان سَيُتاح لى فى وضع مختلف ".
" أكبر كثيراً "، وافق الصيدلى.

وكان على حَق ، فمن كُلِّ الدُّن والقرى في المنطقة المجاورة جاء الخطرون ، والمحبطون ، والعصابيُّون - المرضى عقلياً من كل نمط ونوع . وبعد انقضاء أربعة أشهر كانت السراية الخضراء مجتمعا صغيرا قائما بذاته ، وكان لابد من إضافة قاعة تضمّ سبعاً وثلاثين غُرْفة عَزْل جديدة . واعترف الأب لوبيس بأنه لم يكن يتصور أن هناك كُلُّ هذا العدد من المجانين في العالم ولا أن هناك مثل هذه الحالات الغريبة من الجنون . كان أحد المرضى - وكان شاباً جاهلاً جلفاً - يلقى خطاباً كُلّ يوم بعد الغداء . كان خطاباً أكاديمياً ، مليئاً بأساليب الاستعارة ، والطبّاق ، والالتفات ، مُرصّعاً بكلمات إغريقية واستشهادات من شيشرون ، وأبوليوس ، وترتوليان . وكان من الصعوبة بمكان أن يصدق القسيس أذنيه . ماذا ؟ شخص كان قد رآه منذ ثلاثة أشهر فقط يتسكم على نواصى الشوارع !

" هكذا تماماً " ، أجاب الطبيب ، " لكن قداستكم رأيتم بنفسكم . هذا

يحدث كل يوم " .

" التفسير الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه " ، قال القسيّس ، " هو اختلاط الألسن فوق بُرْج بابل ، لقد اختلطت اللغات هناك تماماً بحيث أصبح من المحتمل الآن – عندما يفقد شخص عقله – أن ينزلق بسهولة من لغة إلى أخرى " .

أخرى " . " رُبّما كان ذلك حقاً التفسير الإلهى " ، وافق طبيب الأمراض العقلية ، " لكننى أبحث عن تفسير إنسانى علمى بَحْت – وأعتقد أن هناك تفسيراً كهذا " .

" ربما كان الأمر كما تقول ، لكننى في الواقع لا أستطيع أن أتخيلً ماذا عسى أن يكون " .

عديد من الرضى كان قد دفعهم الحُبّ إلى الجنون ، وكان أحد هؤلاء يقضى كل وقته يتجولً فى أنحاء المبنى والفناء باحثاً عن زوجته ، التى كان قد قتلها فى نوبة غيرة تميّزت بها بداية جنونه ، مريض آخر كان يعتقد أنه نجمة الصباح . كان قد تقدّم مراراً وتكراراً طالباً الزواج من سيدة شابة بعينها ، وكانت قد رفضته فى كُلّ المرّات ، وكان يعرف السبب : كانت تعتقد أنه بطئ الفهم إلى حد مُفزع وكانت تنتظر لترى ما إذا كان يمكنها أن تصطاد زوجاً أكثر إثارة للاهتمام ، وعلى هذا النحو صار نجمة لامعة ، واقفاً وقد مد قدمين وذراعين كالأشعة ، وسيظل واقفاً فى هذا الوضع طوال ساعات ، فى انتظار أن تحل محله الشمس المشرقة .

كانت هناك حالات جديرة بالذكر من جنون العظمة . فأحد المرضى ، وهو ابن ترزى متواضع ، اخترع شجرة أنساب رجع فيها بأسلافه إلى أفراد الأسرة المالكة ثم ، من خلالهم ، إلى يَهْوَه الربّ في نهاية الأمر . وكان عليه أن

يسرد القائمة الكاملة لأسلافه الذكور ، مستخدماً فعل " ولَد " للربط بين كُل أب وابن . وعندئذ كان يلطم جبهته ، ويعض أصابعه ، ويعيد سرد القائمة كلّها من جديد . مريض آخر كانت لديه فكرة مشابهة لكنه طُورها بمنطق أكثر صرامة . وقد بدأ بفرضية أنه ابن من أبناء الرب ، الأمر الذي لم يكن بوسع القسيس ذاته أن ينكره ، واستنتج من ذلك – بما أن نوع الابن هو نفس نوع الأب – أنه هو ذاته إله . وهذا الاستنتاج ، المستمد من مُقدمتين لا تُدُخسان – إحداهما من الكتاب المقدس ، والأخرى علمية – وضعه في مكانة أسمى كثيراً من المجانين الذين يطابقون أنفسهم مع القيصر ، أو الاسكندر ، أو غيرهما من البشر الفانين .

أمًا ما كان لافتاً للنظر أكثر حتى من ضروب المس والأوهام لدى المجانين فهو صبر طبيب الأمراض العقلية . فقد بدأ بتعيين اثنين من المساعدين الإداريين – وهى فكرة قبلها من كريسبين سواريس مصحوبة بابنى أخيه . كلف الطبيب هذين الشابين بمهمة تنفيذ القواعد والتوجيهات التى أقرها المجلس البلدى بخصوص المصحة العقلية . كما كانا مكلفين بالسجلات ومسؤولين عن توزيع الطعام والكساء . وهكذا أصبح بمستطاع بالسبب أن يكرس كل وقته للطب العقلى .

قال للقسيّس: " للسراية الخضراء الآن حكومتها الزمنية وحكومتها الروحية " * .

صُحك الأب لوپيس وقال: " ما أطرف وأبهج أن نجد مجتمعاً يسسُود فيه ما هو روحيّ ".

بعد أن تحرّر من الأعباء الإدارية بدأ الدكتور باكامارته دراسة شاملة لكُل مريض: تاريخه الشخصى والعائلى ، عاداته ، ما يحبّ وما يكره ، هواياته ، مفاقفه إزاء الآخرين ، وهلم جرا ، كما قضى ساعات طوالاً يدرس ويخترع ويجرّب طرق العلاج النفسى . لم ينّم إلا قليلاً ولم يأكُل إلا القليل ، وعندما كان يأكل كان يظل يعمل ، فعلى مائدة الغداء كان بإمكانه أن يقرأ

لعب بالألفاظ ، حيث أن ما هو espritual يعنى في أن معاً "ما هو روحى" و "ما ينتمى
 إلى العقل" - تعليق الطبعة الإنجليزية.

نصاً قديماً أو أن يفكّر ملياً في مشكلة صعبة . وفي كثير من الأحيان كان يجلس طوال وجبة غداء دون أن يقول كلمة واحدة لدونا إقاريستا.

۳ الله وحده يعلم ماذا يفعل

بعد انقضاء شهرين على هذا الحال كانت زوجة الدكتور امرأة مُحَطَّمَة تماماً . لَمْ تَلُمْ زوجها بل عانت في صمت . انسحبت إلى حالة من الاكتئاب العميق ، وأصبحت نحيلة ومائلة إلى الاصفرار ، ولم تَكُن تأكُل سوّى القليل ، وكانت تتنهد على نحو متواصل ، ذات يوم ، وأثناء الغداء ، سألها عمّا بها . أجابت بحزن بأنه لا شئ بها . ثم غامرت لأوّل مرّة بأن تشكو قليلاً ، قائلة أنها اعتبرت نفسها الآن أرملة : تماماً كما كانت قبل أن تتزوّج منه .

"مَنْ كان يمكنه بحق السماء أن يظن أن مجموعة من المجانين ... "

لم تكمل الجملة . أو ، بالأحرى ، أكملتها برفع عينيها إلى السقف . كانت عينا دونا إقاريستا أكثر ملامحها جاذبية - كانتا واسعتين وسوداوين ، وكانتا تستحمان في ضوء يلفه البخار مثل الفجر . كانت قد استخدمتهما من قبل بنفس الطريقة إلى حد كبير عندما كانت تحاول أن تُغرى سيمون باكامارته بطلب يدها . كانت الآن تلوّح بسلاحها من جديد ، وهذه المرة في سبيل الهدف الجلي الواضح الذي يتمثل في الإجهاز على العلم . لكن الدكتور لم يرتبك . ظلّت عيناه حازمتين ، هادئتين ، ثابتتين . لم تعكّر تجعيدة واحدة صفاء جبينه ، الصافي مثل مياه خليج بوتافوجو . وربما لعبت ابتسامة خفيفة على شفتيه عندما قال: " يمكنك أن تذهبي إلى ريو دي چانيرو ".

أحسنت دونا إقاريستا وكأنّ الأرض قد تلاشت من تحتها وكأنها تطفو في الهواء ، لَمْ تَكُن قد ذهبت قط إلى ريو ، التى - رغم أنها لم تكن تعدو أن تكون صورة باهتة مما هي عليه اليوم - كانت بالمقارنة مع إتاجواي عاصمة

عظيمة وساحرة . ومنذ الطفولة كانت تحلم دائماً بالذهاب إلى هناك . كانت تتوق إلى ريو كما كان لابد لعبري في الأسر البابليّ أن يتوق إلى أورشليم ، لكنها مع استقرار زوجها بكل هذا الثبات في إتاجواي كانت قد فقدت الأمل . وها هو الآن يُتيح لها ، فجأة ، أن تحقّق حلمها . لَمْ يكُن بمستطاع دونا إقاريستا أن تُخفى ابتهاجها ، أخذها سيمون باكامارته من يدها وابتسم بطريقة هي في أن معا زوجية وفلسفية .

ما أغرب علاج الروح! " ، هكذا فكّر . " هذه السيدة تُصاب بالهزال وتذوى لأنها تعتقد أنني لا أحبها . وأنا أمنحها ريو دى جانيرو فتصبح على ما يرام مرّة أخرى " . ثم دوّن ملاحظة عن هذه الظاهرة .

نفذ إلى قلب دونا إقاريستا هاجس مباغت . لكنها أخفت قلقها واكتفت بإبلاغ زوجها أنها أن تذهب أيضاً ، إن لم يذهب هو ، لأنه لا يمكنها طبعاً أن تسافر وحدها.

" عمتك ستذهب معك " ، أجاب الدكتور .

لابد من الإشارة إلى أن هذا الحلّ كان قد خطر على بال دويا إقاريستا . لكنها لم تقترحه ، لأنه سيفرض على زوجها تكاليف كبيرة . بالإضافة إلى ذلك ، كان من الأفضل أن يأتي الاقتراح منه هو .

أوه ، لكنْ النقود التي سيكلفها ذلك ! " ، قالت وهي تتنهد بارتياح . " لا يهم " ، أجاب . " هل عندك أيّ فكرة عن دخلنا ؟ " " لا يهم " ، أجاب . " هل عندك أيّ فكرة عن دخلنا ؟ "

أحضر لها دفاتر الحساب ، ورغم أن دونا إقاريستا كانت مأخوذة بكميات الأرقام ، فإنها لم تكن واثقة مما تدّل عليه ، ولهذا أخذها زوجها إلى الخزانة حيث كانت النقود محفوظة

ما للسماء! كانت هناك جبال من الذهب ، ألاف فوق آلاف من الكروزادو والدويلون . تُرْوَّة ! وبينما كانت تشرب هذه الثروة بعينيها . السوداوين ، اقترب منها الطبيب بفمه وهمس عابثاً : " مَنْ كان يمكنه بحقّ السماء أن يظن أن مجموعة من المجانين ... "

فهمَتْ دونا إقاريستا وابتسمت وأجابت بإذعان تام: " الله وحده يعلم ماذا يفعل " . verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

بعد ذلك بثلاثة أشهر سافرت إلى ريو بصحبة عمتها ، وزوجة الصيدلى ، وإحدى بنات عمّ الصيدلى ، وقسيس كان باكامارته قد عرفه فى الشبونه وتصادف وجوده فى إتاجواى ، وأربع خادمات ، وخمسة أو سنة من السفرجية الذكور ، جاء جمع صغير ليشهدوا سفرهم . كان الوداع حزيناً للجميع فيما عدا الدكتور ، ذلك أنه لم يزعج نفسه بشئ خارج دنيا العلم ، حتى دموع دونا إقاريستا ، رغم أنها كانت مخلصة وغزيرة ، لم تؤثر فيه ، وإذا كان هناك شئ جذب اهتمامه فى تلك المناسبة ، إذا كان قد ألقى نظرة قلقة شبه بوليسية على الجمع المحتشد ، فإن ذلك لَمْ يَكُن إلاّ لأنه ارتاب فى حضور مُرتشح أو مُرتشحين للإيداع فى السراية الخضراء .

بعد الرحيل امتطى الصيدلى والطبيب حصانيهما وانطلقا عائدين . كان كريسپين سواريس يحملق إلى الطريق ، بين أذنى حصانه الأغير . أما سيمون باكامارته فقد راح يمسح بعينيه الأفق والجبال البعيدة وترك لحصانه مهمة العثور على طريق العودة ، رمزان كاملان للإنسان العادى وللعبقرى ! أحدهما يحملق مُثَبّتاً نظره على الحاضر بكل دموعه وحرْماناته ؛ والآخر يتطلّع فيما وراء ذلك إلى الفجر المجيد لمستقبل سيقوم هو بتشكيله ،

ة نظرية جديدة

بينما كان حصانه يعدو وئيدا ، خطرت على بال سيمون باكامارته فرضية جديدة وجريئة . والواقع أنها كانت جريئة إلى حد أنه كان بمستطاعها ، في حالة إثباتها ، أن تقوم بتثوير أسس علم أمراض النفس . خلال الأيام القليلة التالية فكّر وأنعم التفكير في هذه الفرضية . ثم بدأ يذهب ، في وقت فراغه ، من بيت إلى بيت ، فيتحدث مع أهل البلدة عن ألف

شيئ وشيئ ويؤكد الحديث بنظرة نافذة أفزعت حتى أشجع الشجعان.

ذات صباح ، بعد أن استمر ذلك نحو ثلاثة أسابيع ، تَلقًى كريسپين سواريس رسالة تقول أن الطبيب يرغب في رؤيته .

يقول أن الأمر هام " ، أضاف الرسول ،

شحب وجه الصيدلى ، لا بد أن شيئاً قد حدث لزوجته ! ولا بد من الإشارة إلى أن مستجلى أحداث إتاجواى يسهبون فى الحديث عن حب كريسبين لسيزاريا ويشيرون إلى أنهما لم ينفصلا على الإطلاق طوال الثلاثين عاماً من زواجهما . وعلى هذه الخلفية فقط يمكن للمرء أن يفسر ذلك المونولوج ، الذى كان الخدم يسترقون إليه السمع فى كثير من الأحيان ، والذى كان الصيدلى يسب به نفسه : " أنت تفتقد زوجتك ، أليس كذلك ؟ توشك على الجنون بدونها ؟ تستحق ما يحدث لك ! تُذعن دائماً للدكتور باكامارته ! من قال لك أن تدع سيزاريا تسافر ؟ الدكتور باكامارته ، هو الذى فعل . عندما يقول أى شيئ فأنت تقول أمين ، انظر الآن إذن ماهى النتيجة ، أيها الدلدول الصقير ، القذر ، البائس ، المتذلّل ! المتزلّف ! الإمّعة ! " . وأضاف شتائم كثيرة أخرى قبيحة لا ينبغى للمرء أن يوجهها إلى أعدائه ، ناهيك عن نفسه . ويمكن أن نتصور بكل سهولة وقع الرسالة عليه ومزاجه على هذا الحال . أوقع العقاقير التى كان يمزجها وطار بكل معنى الكلمة إلى السراية الخضراء . حيّاه سيمون باكامارته مسروراً ، لكنه احتفظ بابتهاجه كما ينبغى لرجل حكيم أن يفعل – مكتوماً ببالغ الاحتراس .

" أنا سعيد جداً " ، قال ،

" بعض الأخبار من زُوجَتينا ؟ " ، سأل الصيدلي بصوت مرتجف .

أوما الطبيب إيماءة رائعة وأجاب: "شئ أهم بكثير - تجربة علمية ، وأنا أقول " تجربة " ، لأننى لا أجرؤ بعد على تأكيد صحة نظريتى . هذه حقاً طبيعة العلم ذاتها يا سواريس: بحث لا ينتهى . لكنها ، رغم أنها ليست سوى مجرد تجربة إلى الآن ، فقد تُغيّر وجه الأرض . إلى اليوم كان يُعتقد أن الجنون جزيرة صعيرة في محيط من العقل ، وأنا أبدأ الآن في الشك في أنها ليست أبداً جزيرة بل قارة " .

صمت قليلاً ، مستمتعاً بذهول الصيدلي . ثم أخذ يشرح نظريته

بإسهاب . كان عدد الأشخاص المصابين بالجنون ، في اعتقاده ، أكبر بكثير مما يُفترض عادة ؛ وقد طور هذه الفكرة بفيض من الحجج ، والفحوص ، والأمثلة . وجد كثيراً من هذه الأمثلة في إتاجواي ، لكنه أدرك المغالطة التي ينطوي عليها حصر مُعطياته في زمان واحد ومكان واحد ولهذا لجأ إلى التاريخ . أشار بوجه خاص إلى عدد من مشاهير التاريخ : سقراط ، الذي كان يعتقد أن له شيطاناً شخصياً ؛ پاسكال ، الذي خاط على تقرير عن الهلوسة داخل بطانة معطفة ، كاراكالاً ، دوميثيان ، كاليجولا ، وآخرين ، إن دهشة الصيدلي إزاء خلط باكامارته ماهو شرير بما هو مجرد مضحك دفعت الطبيب إلى إيضاح أن هذه الصفات التي تبدو غير متباعدة هي في الواقع مظاهر مختلفة لنفس الشئ .

" السلوك غير الطبيعي ، ياصديقي ، وحشيّة متنكّرة لاغير " .

" عظيم ، عظيم جداً " ، هتف كريسيين سواريس ،

وفيما يتعلّق بالفكرة الأساسية الخاصة بتوسيع عالم الجنون ، فقد وجدها الصيدلى مُتكلّفة إلى حدّ ما ؛ لكن تواضعه ، الذى يمثّل فضيلته الرئيسية ، منعه من الإدلاء برأيه . بدلاً من ذلك ، عبر عن حماس نبيل . أعلن أن الفكرة سامية وأضاف أنها " شيْ جدير ببوق المنادى " . وهذا التعبير الأخير يحتاج إلى شرّح . مثل المدن والقرى والمستوطنات الأخرى في المستعمرة في ذلك الزمان ، لم يكن لدى إتاجواى جريدة . كانت إتاجواى تستخدم وسيلتين لنشر الأخبار : الأولى ملصقات مكتوبة بخط اليد يتم تثبيتها بالمسامير على أبواب دار البلدية ، وعلى أبواب الكنيسة ؛ والثانية .. بوق المنادى .

وإليك الطريقة التى كانت تعمل بها الوسيلة الأخيرة : كان يتم استئجار شخص ليوم أو أكثر ليطوف فى الشوارع وهو ينفخ فى البوق ، عندئذ كان يمكن أن يتجمع حشد من الناس وأن يعلن الرجل أى شئ دفع له المال ليعلنه : علاج للملاريا ، هبة للكنيسة ، أرض مزرعة ما للبيع ، وما أشبه ذلك . بل يمكن أن يكون ملتزماً حتى بإلقاء قطعة شعرية على الناس . أزعج هذا النظام دائماً طمأنينة الأهالى ، لكنه بقى زمناً طويلاً بفضل فعاليته الإعجازية تقريباً . ومهما بدا هذا غير قابل للتصديق ، فإن بُوق المنادى مكن

erted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجار فعلاً من بيع سلعهم الرديئة بأسعار عالية ، ومكَّن مؤلفين رديئين للغاية من أن يشقُّوا طريقهم بوصفهم عباقرة . أجل ، حقاً ليست كُلّ مؤسسات النظام القديم تستحق ازدراء قرننا .

" لا ، لن أعلن نظريتي على الجمهور " ، أجاب الطبيب ، " ساقوم بشيئ أفضل: سأطبقها " .

وافق الصيدلى على أنه رُبّما كان من الأفضل أن يبدأ على ذلك النحو. وأنهى كلامه بقوله: "سيكون هناك كثير من الوقت لبوق المنادى فيما بعد ".

لكن سيمون باكامارته لم يَكُن يُصغى ، بدا غارقاً في التأمُّل ، عندما تكلُّم أخيراً ، كان كلامه صادراً عن رويَّة وإنعام تفكير .

قال: " فكر في البشرية ، على أنها صدفة محار كبيرة ، تتمثل مهمتنا الأولى ، يا سواريس ، في أن نستخرج اللؤلؤة - أي العقل ، بكلمات أخرى ، ينبغي أن نحد طبيعة وحدود العقل ، الجنون ببساطة هو كُلّ ما يقّع خارج تلك الحدود ، لكن ما العقل إن لم يَكُن توازُن القوى العقلية ؟ لهذا ، فإن الفرد الذي ينقصه هذا التوازُن في أي نقطة هو مجنون إلى ذلك المدي".

أَجاب الأَب لوبيس ، الذَّى أَفضَى إليه أيضاً بنظريته ، بأنه واثق تماماً من أنه فهمها إلاّ أنها تبدو خطرة إلى حدّ ما وأنها ستحتاج على أى حال إلى عمل أكثر مما يمكن أن يقوم به طبيب واحد .

" وفقاً للتعريف الحالى للجنون ، والذى كان مقبولاً دائماً" ، اضاف الأب لوبيس ، " السياج المحيط بهذا النطاق واضح وكاف على أكمل وجه . لذا لا نبقى داخل حدوده ؟ " .

ارتسمت مسحة مبهمة لابتسامة على شفتى الطبيب الدقيقتين والحذرتين ، ابتسامة امتزج فيها الازدراء بالشفقة ، لكنه لم يقل شيئاً . كل ما في الأمر أن العلم مدّ يده إلى اللاهوت – بثقة تردد معها اللاهوت حول ما إذا كان ينبغي أن يؤمن بنفسه أم بالعلم ، وكانت إتاجواى والعالم بأسره على حافة ثورة .

* * *

ة الإر هاب

بعد ذلك بأربعة أيام فزع سكان إتاجواى عندما سمعوا أن شخصاً اسمه السيد كوستا تَمَّ إيداعه السراية الخضراء .

" مستحيل! "

" ماذا تعنى ، مستحيل! أخذوه هذا الصباح " .

كان كوستا واحداً من المواطنين الذين يحظون بأشد الاحترام في التجواى . وكان قد ورث كرزادو بعُملة الملك چُوان الخامس الجيدة . وعلى حد قول عمه في الوصية ، كانت الفائدة على هذا الرأسمال ستكفى لإعالته "حتى نهاية العالم " . لكنه بمجرد أن تلقّي الميراث بدأ في إقراض الناس بدون فائدة : ألف كروزادو لشخص ، ألفان لآخر ، ثلاثمائة لآخر ، ثلاثمائة لآخر ، إلى أن – عند نهاية خمس سنوات – لم يبق شي . ولو أن الفقر حلّ به دفعة واحدة ، لكانت صدمة أهالي إتاجواي الطيبين هائلة . لكنه جاء شيئاً فشيئاً . انتقل كوستا من الثراء الوافر إلى الغني ، ومن الغني إلى يُسئر الحال ، ومن يُسئر الحال إلى ضيق ذات اليد ، ومن ضيق ذات اليد ، ومن ضيق ذات اليد إلى الفقر والإملاق ، والناس الذين كانوا – منذ خمس سنوات – يرفعون السبحوا الآن يربتون على كتفه ، ويُنقرون بأصابعهم على أنفه ، ويبدون عليه ملحظات فظة . لكن كوستا ظلّ دمثاً ، باسماً ، مُذعناً بمهابة . ولم يكن يرعجه حتى واقع أن أولئك الأقلّ دماثة هم نفس الأشخاص الذين كانوا يدينون له بالمال؛ على العكس من ذلك ، بدا أنه يُحيّيهم بابتهاج خاص .

ذات مرّة ، عندما سخر منه أحد هؤلاء المدينين الأبديين فلم يزد كوستًا عن أنْ ابتسم ، قال له أحد الأشخاص : " أنت لطيف مع هذا الشخص لأنك لا تزال تأمل أن يكون بمستطاعك أن تجعله يسدّد ما يدين لك به " . لم يتردّد كوستا لحظة واحدة . ذهب إلى المدين وأعفاه من الدين . " من المؤكد " ، قال الرجل الذي كان قد أبدى الملاحظة القاسية ، " أن كوستا ٱلْغَى الدين لأنه أدرك أنه لن يمكنه استرداده بحال من الأحوال " . لم يَكُن كوستًا ساذجاً ؛ لقد توَقّع رَدّ الفعل هذا ، ولكونه قادراً على الابتكار وغيوراً على شرفه ، وجد بعد ذلك بساعتين طريقة يبرهن بها أنه لا يستحق هذا الطعن : أَخْذَ قليلاً من النقود وأقرضها لنفس المدين ،

" والآن آمُل ... " ، فكر كوستا . هذا الصنيع من كوستا أقنع السنُّدَّج والمتشككين على حدّ سواء . بعد ذلك لم يُشك أحد في نُبل روح ذلك المواطن الفاضل . كُلّ المحتاجين . ولا يهم م كم كانوا جبناء - أقبلوا بعباءاتهم المرقِّعَة وطرقوا بابه ، ولكنَّ كلمات الرجل الذي طعن في دوافعه ظُلُّت تأكل في روحه كالدود ، ولكن هذا بدوره انتهى ، فبعد ذلك بثلاثة أشهر طلب منه ذلك الرجل مائة وعشرين كروزادو ، واعداً بسداد المبلغ في غضون يومين . كان هذا المبلغ هو كل ما بقى من الميراث ، ولكن كوستا منح السلفة في الحال ، دون تردّد أو فائدة . كانت تلك وسيلة للتعويض النبيل عن الوصمة التي لطّخت شرفه ، وربما كان الدين سيسدّد عاجلاً أو آجلاً ، واسع الحظّ لم يكن بإمكان كوستا أن ينتظر ، فبعد ذلك بخمسة أشهر تم إيداعه السراية الخضراء

يمكن للمرء أن يتصوّر بسهولة الذَّعْر الذي تفشّى في إتاجواي ، عندما علم الأهالي بالأمر . قال بعضهم أن كوستا أصيب بالجنون أثناء تناول الغداء ، وقال آخرون أن ذلك حدث في الصباح الباكر . وتحدَّثوا عن النوبات العقلية التي كانت تنتابه ، والتي وصفها بعضهم بأنها كانت عنيفة ومفزعة ، وآخرون بأنها كانت خفيفة وحتى مسلية ، أسرع كثير من الناس إلى السراية الخضراء . هناك وجدوا كوستا المسكين هادئاً وإن كان مُندهشاً قليلاً ، يتحدَّث بفكر صاف سليم ويتسامل لماذا أحضروه إلى هناك . ذهب بعضهم وتحدثوا مع الطبيب . أثنني باكامارته على تقديرهم للمريض وتعاطفهم معه ، لكنه أوضح أن العلم هو العلم وأنه لم يكن بإمكانه أن يسمح لمجنون بأن يظل مُطلق السراح . كان آخر من تشفّع (لأن أحداً لم يجرق ، بعد حدوث ما سأرويه في الحال ، على الذهاب لرؤية الطبيب الرهيب) سيدة هي ابنة عُمّ المريض . أخبرها الدكتور أنه لا شك في أن كوستا مجنون ، وإلا لم بدد كُل النقود التي ...

" لا ! أنت مخطئ في ذلك ! " قاطعته المرأة الطيبة بحماس . " لا ينبغي لومه على ما فعل " .

" s ¥ "

" لا ، يا دكتور ، سأروى لك ما حدث بالضبط ، لم يكن عَمِّى رجُلاً سيئاً عادة ، لكنه عندما كان يغضب كان يغدو شرساً إلى حد أنه لم يكن حتى ليخلع قبعته لتحية موكب دينى . حسناً ، ذات يوم ، قبل وفاته بوقت قصير ، اكتشف أن عبداً سرق منه ثوراً . أصبح وجهه أحمر مثل الفلفل ؛ وارتجف من الرأس إلى القدم ؛ وعلا الزبد فمه . في تلك اللحظة جاءه شخص قبيح أشعث الشعر وطلب منه شربة ماء . قال عَمِّى (تغَمَّده الله برحمته) للرجل أن يذهب ليشرب من النهر – أو من الجحيم ، فهذا لا يعنيه مطلقاً . حملق فيه الرجل غاضباً ، ورفع يده مُهدداً ، وأطلق هذه اللعنة : " لن يدوم مالك أكثر من سبع سنوات ويوم واحد ، هذا مؤكّد كما أن هذه بالتأكيد هي نجمة داود ، وشومة على ذراعه . كان ذلك هو السبب وراء داود . " وأبرز نجمة داود موشومة على ذراعه . كان ذلك هو السبب وراء

اخترقت عينا باكامارته المرأة المسكينة مثل خناجر . وعندما أنهت كلامها ، مد يده بحفاوة وكأنها زوجة نائب الملك ودعاها للذهاب والحديث مع ابن عمها . صدقته المرأة المسكينة . أخذها إلى السراية الخضراء وحجزها في العنبر الخاص بأولئك الذين يعانون من الأوهام والهلاوس .

عندما عُرف هذا الازدواج عن باكامارته الشهير ، فزع الأهالى ، لم يكُن بإمكان أحد أن يُصدّق ذلك ، لأنه لا سبب على الإطلاق يجعل طبيب الأمراض العقلية يحجز امرأة عاقلة تماماً كان خطؤها الوحيد التشفّع لصالح قريب تعيس الحظ . كثر القيل والقال حول هذه الحالة على نواصى الشوارع وفى عضون فترة قصيرة تطورت إلى رواية كاملة ،

بعروض غرامية من الطبيب على ابنة عمّ كوستا ، وسُخْط كوستا ، وازدراء ابنة العمّ ، وأخيراً انتقام الطبيب منهما معاً . كان كُلّ شي واضحاً للغاية . لكنْ الم يكذّ الم يكذّ الم يكذّ الم يكذّ الم يكذّ الم يكذ ذلك سوى قناع يُخفى به خيانته . بل إن واحداً من أكثر أهالى البلدة سذاجة همس بأنه كان يعرف أشياء أخرى بعينها – أشياء لم يكُن بوسعه أن يقول ماهى ، لافتقاره إلى الدليل الكامل – لكنه كان يعرف أنها صحيحة ، وكان يمكنه حتى أن يُقسم عليها .

" أنت صديقه الحميم " ، سالوا الصيدلى ، " ألا يمكنك أن تقول لنا ماذا يجرى، ماذا حدث ، وما السبب ... ؟ "

كان كريسبين سواريس بالغ السرور . كانت هذه الاستفسارات من جانب الأصدقاء الحائرين ، ومن جانب أولئك القلقين والفضوليين بوجه عام ، تُساوى الاعتراف العام بأهميته . لم يكُن هناك أدنى شكّ حول هذا الأمر ، كان السكّان بأسرهم يعرفون أنه ، الصيدلى كريسبين ، هو الصديق الحميم والمؤتمن لطبيب الأمراض العقلية ، وشريك الرجل العظيم . هذا هو السبب فى أنهم أقبلوا جميعاً يهرولون إلى الصيدليّة . وكان بإمكان المرء أن يقرأ كل هذا فى التعبير المرح والابتسامة المتحفظة على وجه الصيدلى — وفى صمته ، ذلك أنه لم يتقوه بئى إجابة . فقط كلمة أو كلمتين أو ثلاث كلمات من تلك الكلمات البسيطة ذات المقطع الواحد على الأكثر ، تغطيها نصف ابتسامة مُخلصة وفيّة ومليئة بأسرار علمية لم يكُن بإمكانه أن يبوح بها لإنسان دون إحساس بالضطر والعار .

يجرى شئ غريب جداً " ، فكَّر أهالِي البلدة ،

لكن شخصاً منهم لم يزد عن أن هز كتفيه ومضى فى طريقه ، كانت لديه اهتمامات أكثر أهمية . كان قد بنى منذ فترة قصيرة بيتاً رائعاً ، له حديقة كانت تُحفّة من تُحف الفن والذوق ، وكان أثاثه ، المستورد من المجر وهولندا ، يُرى من الشارع ، لأن النوافذ كانت مفتوحة دائماً ، هذا الرجل ، الذى أصبح ثرياً بفضل صناعته لسروج نقل الأحمال ، كان يحلم دائماً بامتلاك بيت فخم ، وحديقة متثقنة الإعداد ، وأثاث نادر ، والآن ، بعد أن حقق كل هذه الأشياء وأصبح يعيش فى شبه تقاعد ، كان يكرس أكثر وقته

للاستمتاع بها . ولا شك فى أن بيته كان أفضل بيت فى إتاجواى ، كان أفضم من السراية الخضراء ، وأكثر مهابة من دار البلدية . وكنت تسمع العويل وصرير الأسنان بين النخبة الاجتماعية فى إتاجواى متى سمعوه يُمتدح أو حتى يُذكر – بل ، عندما كان يخطر وحسب على بالهم ، ويملكه مجرد صانع سروج لنقل الأحمال ، يا لله !

" ها هو يُحملق في بيته " ، كان بإمكان عابرى السبيل أن يقولوا . فقد كان من عادته أن يقف ميسمراً قدميه كلّ صباح وسط حديقته ويُحملق بشغف في البيت ، كان بإمكانه أن يظل على هذا الحال ساعة كاملة ، إلى أن يُدُعَى إلى تناول الغداء .

رغم أن جيرانه كانوا يحيُّونه ببالغ الاحترام دائماً ، فقد كانوا يسخرون منه خلف ظهره ، علَّق أحدهم بأن ما تيوس كان بإمكانه أن يصنع مالاً أكثر بكثير من صناعته لسروج نقل الأحمال ليضعها على ظهره – وهو تعليق غامض إلى حدٌ ما ، لكنه مع ذلك كان يقذف بسامعيه إلى نوبات من الضحك .

كلّ يوم بعد الظهر ، عندما كانت الأُسر تخرج للنزهة بعد الغداء (كان الناس يتناولون الغداء مبكراً في تلك الأيام) ، كان بإمكان ماتيوس أن يقف مسمراً قدميه عند النافذة الوسطى ، وقد ارتدى بأناقة ملابس بيضاء على ارضية غامقة ، ويمكنه أن يظلّ هناك في وقفة مهيبة على مدى ثلاث أو أربع ساعات ، إلى أن يحلّ الظلام ، وقد يخمّن المرء عن حق أن ما تيوس يقصد قصداً إلى أن يصبح موضع الإعجاب والحسد ، رغم أنه لم يعترف بمثل هذا الغرض لأحد ، ولا حتى للأب لوبيس ، مع ذلك توصل صديقه الطيب ، الصيدلى ، إلى مثل هذا الاستنتاج وأبلغه لباكامارته ، خطر على بال طبيب الأمراض العقلية أن السروجى ، مادام بيته مبنياً من الحجر ، ربيما كان يعانى من البتروفيليا * ، هذا المرض الذي سبق أن اكتشفه الدكتور وظل يدرسه لفترة من الزمن ، هذا التحديق المتواصل في البيت ...

^{*} الحب المرضى للأحجار و الصخور

" لا ، يا دكتور " قاطعه كريسيين سواريس بقوّة . " لا ؟ "

" معذرة ، اكنك ربما لا تعرف ... " ثم قص على الطبيب ما يفعله السروجي كُل يوم بعد الظهر .

التمعت عينا سيمون باكامارته بشهوانية علمية . استجوب كرسيين بشئ من الإسهاب ، وكانت الإجابات التي تلقاها مرضية له بكل وضوح ، بل سارة ، لكن لم يكن هناك أبداً ما يُوحى بنية شريرة في وجه الطبيب أو سلوكه - بل على العكس تماماً - عندما طلب ذراع الصيدلي لجولة قصيرة في شمس الأصيل . كانت المرة الأولى التي يمنح فيها هذا الشرف لصديقه الحميم المؤتمن. قبل كريسيين الدعوة ، مذهولاً ومرتجفاً. في تلك اللحظة بالضبط ، أقبل شُخصان أو ثلاثة لمقابلة الدكتور . وفي صمت تركهم كريسيين الشياطين . كانوا يعوقون الجولة ؛ وربَّما فكَّر باكامارته حتى في أنْ يدعو أحدهم بدلاً من كريسيين . أيّ نفاد صبر ! أي تلهَّف ! أخيراً غادر الزُّوَّار وبدأ الرجُلان جولتهما . اتخذ طبيب الأمراض العقلية وجهة بيت ماتيوس . أخذ يتمشى بالقرب من النافذة خمس أو ست مرات ، على مهل ، وكان يتوقّف من حين لآخر ويلاحظ السلوك البدني والتعبير الوجهي السروجي . لم يلاحظ ماتيوس المسكين سوى أنه كان موضوعاً لفضول أو إعجاب أهمّ شخصية في إتاجواى - كتُّف ماتيوس مهابة تعبيره ، وفخامة وقفته ... وا أسفاه ! لم يكُن يُساعد إلاّ على إدانة نفسه . وفي اليوم التالي تَمَّ إبداعه .

" السراية الخضراء سجن خصوصى " ، قال طبيب فاشل .

لم يسبق أبدًا لرأى من الآراء أن شاع وانتشر بمثل تلك السرعة :
"سجن خصوصى " - كانت الكلمتان تترددان من أحد طرفى إتاجواى إلى طرفها الآخر . وكان ذلك بخوف دون شك ، لأنه خلال الأسبوع التالى لحادثة ماتيوس تمّ إيداع السراية الخضراء أكثر من عشرين شخصاً ، منهم شخصان أو ثلاثة من مواطنى البلدة البارزين . قال الطبيب أن المرضى عقلياً وحدهم هم الذين يتم قبولهم ، لكن لم يصدقه سوى قلة . ثم جاحت الشفسيرات الشعبية للمسالة : الانتقام ، الشراهة ، عقاب من الربّ ،

مونومانيا * أصابت الدكتور نفسه ، خطة سرية من جانب ريودى چانيرو لتدمير الازدهار الاقتصادى الناشئ لإتاجواى ، وأخيراً لإفقار هذه البلدية المنافسة ، وألف إبداع أخر من إبداعات الخيال الشعبي .

فى هذه الفترة عادت مجموعة المسافرات من زيارتهن التى استغرقت عدّة أسابيع لريودى چانيرو . ذهب الطبيب ، والصيدلى ، والأب لوبيس ، وأعضاء المجلس ، وموظفون آخرون كثيرون ، لاستقبالهن . أمّا اللحظة التى رأت فيها دونا إقاريستا زوجها من جديد فقد نظر إليها مُسَجُلو أحداث تلك الفترة على أنها واحدة من أعظم لحظات التاريخ الأخلاقى للإنسان سموًا وجلالاً ، بسبب التباين الصارخ بين هاتين السجيّتين المتطرّفتين (رغم جدارتهما كليهما بالثناء) . أطلقت دونا إقاريستا صبيحة ، وتمتمت بكلمة أو كلمتين ، وألقت بنفسها نحو زوجها بطريقة أوحت في آن معاً بشراسة قطة متوحشة والعاطفة الرقيقة ليمامة . لم يكن باكامارته ، النبيل كذلك . فبالموضوعية التشخيصية ، وبدون أن يُربك للحظة واحدة صرامته العلمية ، مَدّ ذراعية للسيدة ، التي ألقت بنفسها بينهما وأغمى عليها . كان الحادث عابراً ؛ بعد ذلك بدقيقتين كان أصدقاء دونا إقاريستا يُرحبون بها وبدأ المؤكب العائد إلى البلدة .

كانت زوجة طبيب الأمراض العقلية تُمثّل أمل إتاجواى . كان الجميع يعتمدون عليها في تخفيف البلاء الذي نزل عليهم . من هنا كان الابتهاج العام ، والحشود في الشوارع ، والرايات ، والزهور في النوافذ . أمّا باكامارته صاحب المقام الرفيع ، والذي كان قد عهد بزوجته إلى ذراع الأب لوبيس ، فقد سار غارقاً في تأملاته بخطًى محسوبة . على العكس من ذلك ، كانت دونا إقاريستا تُدير رأسها بحيوية ونشاط من ناحية إلى أخرى ، وهي تراقب بفضول الاستقبال الدافئ غير المتوقع . سأل القسيس عن ريودي چانيرو ، التي لم يرها منذ عهد نائب الملك السابق ، وأجابت دونا إقاريستا بأن ريو هي أجمل مشهد يمكن تصور وجوده في العالم بأسره . فالحدائق

^{*} مس عقلى مقصور على فكرة واحدة

العامة ، التى اكتملت الآن ، جَنّة تجوّلت فى أرجائها كثيراً - وشارع الليالى الجميلة ، ونافورة البطّ ... أه ! نافورة البطّ . حقيقة يوجد بطّ هناك ، بط مصنوع من المعدن ويقذف بالماء من الافواه . شئ ساحر . قال القسيس أن ريودى چانيرو كانت بديعة حتى فى أيامه هناك ولابدٌ أنها أبدع الآن . ولا

ذلك ، العاصمة ... لكن لم يكن بإمكان المرء أن يصف إتاجواى بأنها قبيحة ؛ كان فيها عدد من المبانى الجميلة ، مثل سراية ماتيوس ، السراية الخضراء ...

" ويخصوص السراية الخضراء" ، قال الأب لوبيس ، مُنزلقاً بالحديث

عجب في ذلك ، لأنها كانت أكبر بكثير من إتاجواي وكانت ، بالإضافة إلى

" وبخصوص السراية الخضراء" ، قال الآب لوپيس ، منزلفا بالحديث بمهارة إلي الموضوع " ستجدينها مليئة بالمرضى" .

1 (45)

" أجل ، ماتيوس هناك ... "

" السُروجي ؟ "

" كوستا أيضًا هناك . كذلك ابنة عمّ كوستا ، وفلان ، وعلان ،

وټرتان ، و .. " " کلُّهم مجانين ؟ "

" فيما يبدو " ، أجاب القسيس ،

" لكن كيف ؟ لماذا ؟ " أدخي الأن لوييس ذا

أرخى الأب لوبيس زاويتي فمه وكأنه يقول أنه لا يعلم أو لا يرغب فى أن يقول ما يعلم - وهى إجابة مُبهمة ، لم يكُن من الممكن تكرارها لأى شخص . أحست دونا إقاريستا أن من الغريب حقاً أن يكون كل أولئك الناس قد أصيبوا بالجنون . ربّما كان من السهل أن يحدث لشخص أو لآخر . لكن لهم جميعاً ؟ لكن كان من الصعوبة بمكان أن تشك في حقيقة الأمر . كان زوجها رجلاً مُتَعلّماً ، عالماً ؛ ولم يكن ليقوم بإيداع أي شخص السراية الخضراء بدون دليل واضح على الجنون .

أَكُدُ القسيس ملاحظاتها على نحو متقطّع " من غير شكّ ... من غير شكّ ... من غير شكّ ... شكّ ... شكّ ...

بعد ذلك بساعات قليلة جلس حوالى خمسين شخصاً إلى مائدة

سيمون باكامارته على مأدبة العودة إلى البلدة . كانت دونا إقاريستا الموضوع الإجباري لشرب النحب ، والخطب ، والأشعار ، وكانت كلُّها مجازيّة للغاية . كانت زوجة أبوقراط الجديد ، ربّة العلم ، ملاكاً ، الفجر ، المحبة ، المواساة ، الحياة ذاتها . كانت عيناها نجمتين ، حسب تعبير كريسيين سواريس ، وشمسين ، بالمجاز الأقلّ تواضعاً لأحد أعضاء المجلس . وجد الطبيب كلّ هذا مملاً بعض الشئ لكنه لم يُظهر أيّ دلائل على نفاد الصبر . فقط مال على زوجته وقال لها أن مثل تحليقات الخيال هذه ، وإنْ كان مسموحاً بها في مجال الخطابة ، غير قابلة التحقيق في الواقع . حاوات دونا إِقَارِيسِتَا أَن تَقْبِلَ هَذَا الرأى ؛ لكنْ - حتى إِنْ أَسقطُت من حسابها ثلاثة أرياع هذا التملُّق – سيبقى هناك ما يكفى لنفخها نفخاً شديداً ، أحد الخطباء ، على سبيل المثال - مارتين بريتو ، في الخامسة والعشرين من عمره ، وهو شخص مُتَانِّق مُدُّع ، وشديد الوَلع بالنساء - خطب قائلاً أن ميلاد دونا إقاريستا حدث على النحو التالي : " بعد أن منح الله الكون للرجُّل ا والمرأة ، وهما ماس ولؤاؤة التاج الإلهى " (وهنا قام الخطيب بمطَّ هذه العبارة ، بزهو من أحد طرقى المائدة إلى طرفها الآخر)، " قُرَّر أن يتفوِّق على نفسه وهكذا خلق دونا إقاريستا".

غَضَّت رَوْجة الطبيب بصرها بتواضع نموذجى . التفتت سيدتان الخريان ، كانتا تعتبران التعبير المداهن لمارتين بريتو مسرها ووقحا ، لتراقبا اثره على زوج دونا إقاريستا ، وجدتا وجهه مكفهرا بالشكوك ، والتهديدات ، وبما الدم ، تراسى للسيدتين أن الاستفزاز كان كبيراً حقا . صلّتا لله ليمنع وقرع أي كارثة مأسوية – أو ، ويظل هذا أيضا أفضل – ليؤجل وقوعها إلى اليوم التالى ، أكثر السيدتين ترفّقا بالناس أقرَّت (في سريرتها) بأن دونا إقاريستا كانت فوق الشبهات ، لأنها كانت عديمة الجاذبية تماما . مع ذلك لم تكن كلّ الأذواق متشابهة . ربما بعض الرجال ... هذه الفكرة جعلتها ترتجف من جديد ، وإنْ بعنف أقل من ذي قبل ؛ بعنف أقل ، لأن طبيب الأمراض العقلية كان يبتسم في تلك اللحظة لمارتين بريتو .

عندما قام الجميع من المائدة ، ذهب إليه باكامارته حيث هو وأطراه على مديحه لدونا إقاريستا . قال أنه كان ارتجالاً متألقاً ، مليئاً بمجازات

خطابية رائعة . هل ابتكر بريتو بنفسه الفكرة المتعلقة بميلاد دونا إفاريستا أم أخذها من شئ قرأه ؟ لا ، كانت مبتكرة تماماً ؛ لقد خطرت على باله بينما كان يخطب واعتبرها ملائمة للاستعمال كذروة خطابية ، والواقع أنه كان يميل دائماً إلى ما هو جرئ وجسور أكثر مما هو رقيق ومرح . كان يُفَصَل الأسلوب الملحمى . ذات مرة ، على سبيل المثال ، كان قد ألف قصيدة غنائية حول سقوط مركيز بومبال وقال فيها أن " تنين العدمية البشع سحقته مخالب انتقام الله " . كما أنه ابتكر كثيراً من المجازات الخطابية القوية الأخرى . وقد أحب المفاهيم السامية ، والافكار العظيمة والنبيلة ...

" ياللشخص المسكين! "، فكّر طبيب الأمراض العقلية . " من المحتمل أنه يعانى من إصابة في المخ ، ليست حالة بالغة الخطورة لكنها تستحقّ الدراسة ".

بعد ذلك بثلاثة أيام علمت دونا إقاريستا ، لدهشتها ، أن مارتين بريتو يعيش في تلك اللحظة في السراية الخضراء . شاب له مثل تلك الأفكار الجميلة ! أرجعت السيدتان الأخريان إيداعه إلى الغيرة من جانب الطبيب ، لأن كلمات الشاب كانت وقحة على نحو استفزازى .

الغيرة ؟ لكن كيف يمكن للمرء ، إذن ، أن يفسر أن يتم بعد ذلك بوقت قصير إيداع أشخاص لا يُمكن تصور أن الدكتور كان يُغار منهم : تشيكو المحب للمزاح وغير المؤذى ، فابريسيو مسَجًل العقود والوثائق ، وكثيرون غيرهما . ازداد الفزع حدة . ولم يعد أحد يعرف العاقل من المجنون . وعندما خرج أزواجهن إلى الشارع ، أشعلت نساء إتاجواى الشموع لمريم العذراء . واستأجر بعض الرجال حرساً خاصاً ليتجوّلوا معهم .

كُلُّ مَنْ كان بإمكانه أن يغادر البلدة فعل ذلك . لكن أحد الهاربين ألقى القبض عليه في نفس اللحظة التى كان يغادر فيها .إنه چيل بيرنارديس وهو شاب ودود ومُهذّب ؛ مُهذّب حقاً إلى حد أنه لم يقل لأحد أهلاً أبداً دون أن يرفع قبعته وينحنى إلى الأرض . وفي الشارع كان يمكن أحياناً أن يجرى أربعين ياردة ليصافح رجلاً أو امرأة – أو حتى طفلاً ، مثل الابن الصغير لقاض متجول . كانت له موهبة خاصة في الدماثة . كان يدين بقبوله من جانب المجتمع ليس فقط لسحره الشخصى بل كذلك أيضاً للعناد النبيل الذي

كان يصمد به أمام أى قَدْر من أنواع الرفض ، والاعتراض ، والجفاء أشبه ذلك ، دون أن يغدو مثبط الهمة . ثم إنه ، متى نجح فى دخوا البيوت ، لم يكن يغادره أبداً – ولا كان المقيمون فيه يريدونه أن يغادر كان ضيفاً ممتعاً واطيفاً . رغم شعبيته وما تولّد عنها من ثقة بالنفس ، لون چيل بيرنارديس عندما سمع ذات يوم أن طبيب الأمراض العقلير يراقبه . في الصباح التالى ، بدأ في مغادرة البلدة لكنْ تَمّ اعتقاله ونقد السراية الخضراء .

" هذا لا يجب السماح باستمراره "،

" يسقط الطغيان " .

مُستبدً ! خارج على القانون ! جولياث ! " ،

فى البداية كانت أشياء كهذه تُقال بأصوات خفيضة وفى الببا فيما بعد صرخ الناس بها فى الشوارع . كان التمرد يرفع رأسه الق خطرت فكرة تقديم التماس للحكومة لاعتقال وترحيل سيمون باكلا لأشخاص كثيرين حتى قبل أن يعبر عنها پورفيريو ، بإيماءات سخط فى صالون الحلاقة الذى يمتلكه . دعنا نلاحظ – وهذه صفحة من صفحات تاريخ قاتم – أنه حالما بدأ سكّان السراية الخضراء ين بسرعة ، ارتفعت أيضاً أرباح پورڤيريو لأن كثيراً من زبائنه أص يطلبون إذ ذاك أن يُقصدوا ؛ لكن المصالح الخاصة – قال الحلاق – ينيغ تترك مكانها للصالح العام . " يجب الإطاحة بالطاغية ! " كان إختلقضية عظيماً إلى حد أنه أطلق هذه الصيحة بمجرد أن سمع عن شخص اسمه كويليو كان قد رفع ضده دعوى قضائية .

" كيف يمكن لأى شخص أن يصف كويليو بالجنون ؟ " يورفيريو ،

لم يُجِب أحد ، قال الجميع أنه كان سليم العقل تماماً ، لم الدعوى القضائية ضد الحلاق ، وهى تتصل بملكية عقارية ، عن كراه ضعينة بل عن الصياغة الغامضة فى حجّة نقل الملكية ، كان لكويليو ممتازة ، أفراد قلائل ، دُون شك ، كانوا يتحاشونه ؛ حالما كانوا يرى

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

مسافة يقترب كانوا يجرون إلى النواصى ويفرون إلى الدكاكين ، والحقيقة أنه كان يعشق المحادثة – المحادثة الطويلة ، سكرات بجرعات كبيرة ، وهكذا لم يكُن وحيداً أبداً تقريباً ، كان يفضل أولئك الذين كانوا يعشقون الحديث أيضاً ، لكن كان بإمكانه أن يساوم ، عند الضرورة ، من أجل محادثة من جانب واحد مع الأكثر صمتاً ، أمّا الأب لوبيس ، الذي كان يكره كويليو ، فكان كلّما رآه يترك شخصاً استشهد بدانتي بتغيير طفيف من عنده :

"La bocca sollevo dal fiero pasto

Ouel seccatore..."*

لكنّ ملاحظة القسيّس لم تؤثّر على التقدير العام الذى كان يلقاه كويليو ، لأن بعضهم عزا هذه الملاحظة إلى مجرّد عداء شخصى واعتقد أخرون أنها صلاة باللآتينية .

* * *

۳. الثورة

تحالف حوالى ثلاثين شخصاً مع الحلاق . أعدُّوا شكوى رسمية وأخذوها إلى المجلس البلدى ، الذى رفضها على أساس أن البحث العلمى لا ينبغى تقييده لا بالتشريع المعادى ولا بأهواء الدهماء وأفكارهم الخاطئة .

" نصيحتى لكم " ، قال رئيس المجلس ، " هى أن تتفرّقوا وتعوبوا إلى العمل" .

كان من الصعوبة بمكان أن يكبح الجمع غضبه ، أعلن الحلاق أن الناس سينحفون إلى السراية الخضراء ويدمرونها ؛ وأن إتاجواى ينبغى ألا

^{* &}quot;رفع الطاعون فعة عن وجبته الوحشية ". قام الآب لوپيس بإحلال كلمة Seccatore (الطاعون) محل كلمة Peccator (الخاطئ) عند دانتي . و كان الكونت أوجولينو ، الخاطئ ، يقضم رأس خاطئء آخر ، الجحيم ، النشيد ٣٣ – ملاحظة الطبعة الإنجليزية

تُستخدم بعد الآن جثّة للتشريح في تجارب طاغية في الطبّ؛ وأنّ العديد من الأشخاص المحترمين بل البارزين ، فضلاً عن الكثيرين من الأشخاص المتواضعين لكن الجديرين بالاحترام ، مُلْقَوْن الآن سُجناء في غُرَف عَزْل المرضي في السراية الخضراء؛ وأن الطبيب مدفوع بكل جلاء بالشراهة لأن أجره تَغيَّراً طردياً مع عدد المجانين المزعومين الموضوعين تحت رعايته –

" هذا غير صحيح " ، قاطع الرئيس ،

" غير صحيح ؟ "

" منذ حوالى أسبوعين تُلقينا رسالة من الدكتور اللامع أعلن فيها أنه ، نظراً للقيمة الكبرى لملاحظاته وتجاربه بالنسبة له كعالم ، لن يقبل بعد الآن أيّ مدفوعات من المجلس أو من أسر المرضى ".

أمام هذا العمل النبيل الذي يدل على إنكار الذات ، كيف يمكن المتمردين أن يُصروا على موقفهم ؟ ربما كان الطبيب يرتكب بعض الأخطاء ، لكن من الجلى الواضح أنه ليس مدفوعاً بأى مصلحة غريبة على العلم ؟ ولإثبات الخطأ عليه ، سيكون مطلوباً شئ آخر أكثر من الحشود المخالفة للقانون في الشوارع ، هكذا تكلم الرئيس ، وصفق المجلس بأسره مُؤيداً .

فكَّر الحلاَق مَلِياً لحظات معدودة ثم أعلن أنه مُنح تفويضاً شعبياً ؛ وأنه لن يمنح إتاجواى سلاماً حتى التدمير النهائى للسراية الخضراء ، " باستيل العقل البشرى ذاك " - وهو تعبير سمع شاعراً محلياً يستخدمه وكرّده في تلك اللحظة بقوّة هائلة . بعد أن تكلّم ، أعطى إشارة ارفاقه وقادهم إلى الخارج .

وجد المجلس نفسه أمام ضرورة عاجلة . كان عليه ، مهما كان الثمن ، أن يمنع التمرّد وسفك الدماء . ومما زاد الأمر سوءً أن أحد أعضاء المجلس ، بعد أن كان أيد الرئيس ، تأثّر بقوّة استعارة " باستيل العقل البشرى " إلى حد أنه غيّر رأيه . نادى باتخاذ إجراء لإزالة السراية الخضراء . بعد أن عبّر الرئيس عن دهشته واستيائه ، علّق العضو المنشق : " لا أعرف شيئاً عن العلم ، لكنْ إذا كان أشخاص كثيرون جداً اعتبرناهم دائماً عقلاء محجوزين على أنهم مجانين ، فكيف نعرف أن المجنون الحقيقى

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ليس طبيب الأمراض العقلية ذاته " .

عضو المجلس هذا ، وكان شخصاً واضح التعبير للغاية اسمه سيباستيان فريتاس ، تحدّث بشئ من الإسهاب ، عرض الحجة المقنعة ضد السراية الخضراء بتحفَّظ لكن باقتناع أكيد ، ذهل زملاؤه ، تَوسلُ إليه الرئيس أن يساعد على الأقل في حفظ القانون والنظام عن طريق عدم التعبير عن آرائه في الشارع ، حيث يمكنها أن تعطى الجسد والروح لما كان حتى ذلك الوقت مُجرّد زُوبَعة من ذرّات غير مُتناسقة ، هذه الاستعارة وازنت إلى حدّ ما استعارة الباستيل ، وعد سيباستيان فريتاس بألا يشرع في أي عمل في الوقت الراهن لكنه احتفظ بحقه في السعى إلى إزالة السراية الخضراء بالوسائل القانونية ، ثم همس لنفسه بهيام : " باستيل العقل البشرى ذاك!"

مع ذلك ، أخذ الحشد ينمو ، والآن أصبح ليس ثلاثون بل ثلاثماية يتبعون الحلاق ، الذي ينبغى أن نذكر لقبه عند هذه النقطة لأنه أعطى التمرد السمه : كان يُدعن ستيويد كورن ، ولهذا عُرفت الحركة باسم تمرد الكورنيين ، وعندما كانوا يندفعون عبر الشوارع كالإعصار نحو السراية الخضراء ، كان من الممكن مقارنتهم حقاً بالجماهير التي اقتحمت الباستيل ، مع التسليم الواجب ، بطبيعة الحال ، بالفارق الكبير بين باريس وإتاجواي.

طفل صغير وثيق الارتباط بالأسرة دخل مسرعاً قادماً من الشارع وروقى الأخبار لدونا إقاريستا . كانت زوجة الطبيب تقيس فستاناً من الحرير (وهو واحد من السبعة والثلاثين فستاناً التي كانت قد اشترتها عندما كانت في ريو) .

أ ربما كانوا مجرَّد مجموعة من السكارى " ، قالت وهى تُغَيّر موضع دبُّوس . "بنيديتا ، هل ذيل الفستان مضبوط ؟ " .

" نعم ، یاسیدتی " ، أجابت الجاریة ، التی کانت تجلس القرفصاء علی الأرض ، " إنه یبدی رائعاً . استدیری فقط قلیلاً جداً . هکذا . إنه مضبوط تماماً ، یاسیدتی " .

" ليسوا مجموعة من السكارى ، يادونا إقاريستا " ، قال الطفل في خوف . " إنهم يصرخون " . " الموت للدكتور باكامارته الطاغية " .

" ألزم الصمت ! بنيديتا ، دقِّقي النظر هنا على الجانب الأيسر . ألا تعتقدين أن خُطَّ الخياطة مثَّنيَّ قليلاً ؟ سيكون علينا أن نفك الخياطة ونخيط من جديد ، حاولي أن تجعليهاً مُتقنة ومُتساوية هذه المرة " .

" الموت للدكتور باكامارته! الموت للطاغية! " ، صرخ ثلاثمائة صوت

فى الشارع ، شحب وَجْه دونا إقاريستا ، ظلَّت واقفة حيث كانت مثل تمثال ، مشلولة السلام ، الخلف ، أمّا الطفل ، من الفزع جرت الجارية على نحو غريزي إلى الباب الخلفي.أمّا الطفل ، الذي كانت دونا إقاريستا قد رفضت تصديقه ، فقد استمتع بلحظة من الارتياح المكتوم لكنّ العميق.

" الموت لطبيب الأمراض العقلية ! " ، صرخت الأصوات ، التي كانت الآن أقرب من ذي قبل .

رغم كونها فريسة سهلة لانفعالات السرور ، كانت دونا إقاريستا امرأة صلبة في وقت الشدائد الم تُصب بإغماء ، اندفعت مسرعة إلى المجرة الداخلية حيث كان زوجها يعمل . في لحظة دخولها المندفع ، كان الدكتور يفكُّر مَلياً في عبارة لابن رشد . كانت عيناه ، العمياوان عن الواقع الخارجي لكنْ النَّافذتان للغاية في عالم الحياة الداخلية ، ترتفعان عن الكتاب إلى السقف وتعودان إلى الكتاب ، نادته دونا إقاريستا باسمه مرتين بصوت عال *دُون أن ينتبه إليها أدنى انتباه . وفي ا*لمرة الثالثة ، سمعها وسمالها عَمّا َ يُزعجها .

" ألا يمكنك أن تسمع هذا الصبياح؟"

أصغى طبيب الأمراض العقلية . كان الصياح يقترب ويقترب ، مُهَدّداً ، مُفزعاً . فهم الطبيب . نهض من الكرسي المريح وأغلق الكتاب ويخطوة ثابتة هادئة سار إلى خزانة الكُتب وأعاد المجلّد إلى مكانه . أدَّى إدخال المجلَّد في مكانه إلى خُروج الكُتب على جانبيُّه خُروجاً طفيفاً عن الخطِّ ، سوًّا ها سيمون باكامارته بعناية ، ثم طلب من زوجته أن تذهب إلى

" لا ، لا " ، توسَّلت زوجته الفاضلة . " أريد أن أموت إلى جوارك ... حيث مكاني ". ألحُّ سيمون باكامارته على ذهابها . طَمْأَنها على أنها لم تكُن مسالة حياة أو حياة أو موت وقال لها أنه سيكون واجبها ، حتى لو كانت مسالة حياة أو موت ، أن تظل على قيد الحياة . أحنتُ السيدة الشقية رأسها ، دامعة ومطيعة.

" تسقط السراية الخضراء " ، صاح الكورنيّون .

خرج طبيب الأمراض العقلية إلى الشُّرْفة الأمامية وواجه الغوغاء المتمردين ، الذين كانت رؤوسهم الثلاثمائة مُشعّة بفضائل ومشاعر المواطن الصالح ومُعتمة بالغضب العنيف . عندما رأوه صاحوا : " مُتْ! مُتْ! " أشار سيمون باكامارته إشارة تدل على رغبته في أن يتكلم ، لكنهم أخذوا يصيحون بصوت أعلى . عندئذ لوَّ الحلاق بقبعته كإشارة لأتباعه ليلزموا الصمت وقال للطبيب أن بإمكانه أن يتكلم ، بشرط ألا تُسئ كلماتُه استغلال صبر الناس ،

" سأقول القليل وإذا أمكن لا شئ على الإطلاق . هذا يَتوقّف على طبيعة الشئ الذي جئتم لالتماسه ".

" نحن لا نلتمس أى شئ " ، أجاب الحلاق ، وهو يرتجف من الفضب . " نحن نطلب تدمير السراية الخضراء أو على الأقل إطلاق سراح جميع المسجونين فيها " .

" لا أفهم " ،

" أنتَ تفهم تماماً ، أيها الطاغية . نريد منك أن تُطلق سراح ضحايا حقدك ، نزواتك ، شراهتك ... "

ابتسم الطبيب ، لكن ابتسامة هذا الرجل العظيم لم تكن لتدركها أعين الجمع المحتشد : كانت عبارة عن تقلص طفيف لعضلتين أو ثلاث عضلات ، لا أكثر .

"أيها السادة "، قال ، " العلم شئ جدًى ويجب أن نعامله بكل جديّة ، وفيما يتعلّق بقراراتي المهنية فأنا لا أحسب حساباً إلا لله والعلماء الثقاة في فرعى الطبى الخاص ، وإذا شئتم أن تقترحوا تغييرات في إدارة السراية الخضراء ، فأنا مستعد للإصغاء إليكم؛ لكن إذا أردتم أن أكون غير صادق مع نفسى ، فإن المزيد من الكلام سيكون بلا جنوى ، كان بإمكانى أن أدعوكم لتعيين لجنة لتأتى وتدرس الطريقة التي أعامل بها المجانين الذين تم

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

إيداعهم تحت رعايتى ، لكننى لن أفعل ، لأننى إن فعلت ذلك فهذا يعنى أننى أحسب لكم حساباً فيما يتعلّق بأساليبى ، وهذا ما لن أفعله أبداً مع مجموعة من المتمردين أو – بقدر ما يتعلّق الأمر بذلك – مع غير المعنييّن من أيّ نوع " ،

هكذا تكلِّم طبيب الأمراض العقلية ، وصنعق الناس عند سماع كلماته ، من الواضع أنهم لم يتوقّعوا مثل هذا الهدوء ومثل هذا الحزم . وكانت دهشتهم أكبر عندما انحنى لهم الطبيب بوقار ، وأدار ظهره ، وسار عائداً على مهل إلى البيت . سرعان ما استعاد الحلاّق رباطة جأشه ، وحَثُّ الغوغاء ، ملوَّحاً بقبِّعته ، على هدم السراية الخضراء . كانت الأصوات التي استأنفت الصياح قليلة وضعيفة . في هذه اللحظة الجاسمة أحسّ الحلاّق في دخيلة نفسه بطموح عارم إلى الحكم ، إذا ما نجح في الإطاحة بطبيب الأمراض العقلية وتدمير السراية الخضراء ، سيكون بإمكانه حقاً أن يستولى على المجلس البلدي ، وأن يسيطر على السلطات البلدية الأخرى ، وأن يجعل نفسه سيّد إتاجواى ، كان قد كافح على مدى سنوات قبل ذلك كي يُوضع اسمه في القوائم التي كان أعضاء المجلس يُختارون منها بالقُرْعة ، لكن التماساته رُفضت لأن مركزه في المجتمع اعتبر مُتعارضاً مع مسؤولية كهذه ، كانت المسألة مسألة الآن أو أبداً . علاوة على ذلك ، كان قد قاد الشغب في الشارع إلى نقطة قد تعنى فيها الهزيمة السجن وربما النفى أو حتى المشنقة ، لسوء الحظ ، كانت إجابة الطبيب قد أفقدت الكورنيين الجانب الأكبر من القُوَّة الدافعة ، عندما أدرك الصلاّق هذا ، أحس وكأنّه يصرخ: " حُقَّراء ! جُبِّناء ! . " لكنه كبح مشاعره ولم يقل سوى : " أصدقائي ، فلنقاتل حتى النهاية! إن خلاص إتاجواي في أيديكم الشريفة والبطواية . فلندمِّر السجن الكريه الذي يحتجز أو يهدُّد أطفالكم وآباعكم ، أمهاتكم وأخواتكم ، أقاربكم وأصدقا عكم ، وأنتم أنفسكم . هل تريدون أن يلقى بكم في زنزانة وأن يتم تجويعكم بالخبز و الماء حتى الموت أو ربما أن تَضْرَبُوا بالسياط حتى الموت ؟ "

نشط الغوغاء ، وهمسوا ، وصاحوا ، وتجَمَّعُوا حَوْل الحلاّق . كان التمرد يُفيق من ذهوله ويهدّد بهدم السراية الخضراء .

Perted by 11ff Combine - (no stamps are applied by registered version)

" تقدُّمُوا ! " صِياح پورفيريو ملكحاً بقبعته .

" تقدَّمُوا ! " رَجِّع أَتْباعه الصُّدى .

فى تلك اللحظة دار فيلق من جُنود سلاح الفرسان حول ناصية الشارع وأقبل زاحفاً نحو الفوغاء.

* * *

٧ ة"اجلغلاة

كان الجمع يبدى مذهولاً بوصول جنود سلاح الفرسان ؛ وكان من الصعوبة بمكان على الكورنيين أن يصدقوا أن قوة القانون كانت تمارس ضدهم ، توقّف جنود سلاح الفرسان وأمر قائدهم الحَشْد بأن يتفرقوا ، بعض المتمردين أحسوا بميل إلى أن يطيعوا ، لكن آخرين تجمعوا حول الحلق ، الذي ردّ بجسارة على القائد العسكرى :

" لن نتفرق . إذا شئتم ، يمكنكم أن تقضوا على حياتنا ، لكن ليس غير : لن نتخلًى عن شرفنا أو حقوقنا ، فعليها يتوقف خلاص إتاجواى " .

لاشئ كان بإمكانه أن يكون أكثر حماقة أو أكثر طبيعية من هذه الإجابة . وهي تعكس النشوة الغامرة التي تخلقها الأزمات الكبرى . وربما كانت تعكس أيضاً إفراطاً في الثقة في صبر القائد العسكرى ، هذه الثقة التي سرعان ما بدّدها أمر القائد بحَشْو الأسلحة . ماتلا ذلك لا يُوصف . انفجر الجمْع بغضبه ، نجح بعضهم في الهرب عن طريق تسلُّق النوافذ أو الجرى في الشارع ، لكن الغالبية ، التي ألهبتها كلمات الحلاق ، زأرت بالغضب وتَشبَّت بمواقعها . بدت هزيمة الكورنيين وشيكة ، عندما انتقل تلث جنود سلاح الفرسان فجأة ، لأسباب غير مبينة في سجلات أحداث البلدة ، إلى جانب المتمردين . هذا التعزيز غير المتوقع قوًى من عزم الكورنيين بطبيعة الحال وتبط همة القوات المسلحة الشرعية ، وفض الجنود الموالون أن بطبيعة الحال وتبط همة القوات المسلحة الشرعية ، وفض الجنود الموالون أن

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يهاجموا رفاقهم و - واحداً بعد الآخر - انضموا إليهم ، وكانت النتيجة أنه فى دقائق معدودة تَبدُّل وَجْه الصراع بأسره . فالقائد العسكرى ، الذي لم يكن يدافع عنه سوى حفنة من رجاله ضد كتلة متراصلة من المتمردين والجنود ، استسلم وسلم سيفه إلى الحلاق .

والجنود ، استسلم وسلَّم سيفه إلى الحلاق .

لم يُضيع المتمردون المنتصرون لحظة واحدة . حملوا الجرْحي إلى أقرب المنازل واتجهوا نحو دار البلدية . تأخّى الشعب والقوَّات المسلحة . هتفوا بحياة الملك ، ونائب الملك ، وإتاجواى ، و " قائدنا العظيم پورفيريو " . سار الحلاق على رأسهم ، مستخدماً السيف ببراعة وكأنه لم يكُن سوى مُوسنى طويلة طولاً غير مألوف . كان النصر يحوم كهالة فوق رأسه ، وكانت مهابة الحكم تسرى في كُل حركة من حركاته .

اعتقد أعضاء المجلس ، الذين كانوا يراقبون من النوافذ ، أن القُوات المسلّحة اعتقلت الكورنيين . قَرَّر المجلس رسمياً أن يبعث بالتماس إلى نائب الملك راجياً منه أن يمنح أجر شهر إضافى لجنود سلاح الفرسان ، " الذين أنقذ تفانيهم الشديد فى الواجب إتاجواى من فَوْضَى التمرُّد وحكم الرعاع " . وهذه العبارة اقترحها سيباستيان فريتاس ، الذي كان دفاعه عن المتمردين قد صدم زملاءه بعنف . لكن أعضاء المجلس التشريعي سرعان ما تبدُّدت أوهامهم . كان بإمكانهم فى تلك اللحظة أن يسمعوا بكل وضوح الهتافات بحياة الحلاق و " بموت أعضاء المجلس " و " بموت طبيب الأمراض العقلية " . رفع رئيس المجلس رأسه عالياً وقال : " مهما كان مصيرنا ، لانسين أبداً أننا خَدَم جلالته وخَدَم إتاجواى " . اقترح سيباستيان أنه ربُمًا كان بإمكانهم أن يخدموا التاج والبلدة على أفضل نحو عن طريق التسلّل إلى كان بإمكانهم أن يخدموا التاج والبلدة على أفضل نحو عن طريق التسلّل إلى الخارج من الباب الخلفي والذهاب الى مكتب القاضى المتجوّل طالبين النُصْح والساعدة ، لكن كلّ أعضاء المجلس الآخرين رفضوا هذا الاقتراح .

بعد ذلك بقليل من الثواني دخل الحلاق وبعض نوابه قاعة الاجتماعات وأبلغوا المجلس البلدى أنه تم حله ، استسلم أعضاء المجلس وتم إيداعهم السبجن ، ثم الع أصدقاء الحلاق عليه ليتولى منصب حاكم إتاجواى باسم صاحب الجلالة ، قبل بورفيريو هذه المسؤولية ، رغم أنه ، كما أخبرهم ، كان مدركاً تمام الإدراك عبئها الثقيل والمشكلات الشائكة التى تستتبعها ، قال

أيضاً أنه سيكون عاجزاً عن الحكم دون تعاونهم ، هذا التعاون الذى وعدوه به دون إبطاء . ثم ذهب الحلاق إلى النافذة وأبلغ الأهالى بما حدث ؛ وصاحوا موافقين . اختار الحلاق لقب "حامى البلدة باسم صاحب الجلالة وباسم الشعب " . أصدر في الحال عدّة أوامر هامة ، وبلاغات رسمية من الحكومة الجديدة ، وتقريراً رسمياً إلى نائب الملك يتضمن الكثير من إعلانات الولاء والطاعة لصاحب الجلالة ، وأخيراً البيان التالى المقتضب لكن القوى إلى الشعب:

أيها الإخوة الإتاجواييُّون:

كان مجلس بلدى فاسد ولا مسؤول يتآمر تآمراً مُخزياً ضد صاحب الجلالة وضد الشعب . كان الرأى العام قد أدانه ، والآن قام بحله قبضة من المواطنين بمساعدة جُنود سلاح فرسان صاحب الجلالة الشجعان . وقد تم تقويضى بموافقة إجماعية بالحكم إلى أن يقرر صاحب الجلالة اتخاذ إجراء رسمى بهذا الشأن . أيها الإتاجواييون ، إنني لا أطلب سوى ثقتكم وعونكم في استعادة الهدوء والأموال العامة ، التي بددها المجلس بطيش . فلتعتمدوا على أننى ساقدم كل تضحية شخصية من أجل الصالح العام ، ولتظلُّوا مطمئنين إلى أننا سنحصل على التأييد الكامل من التاج .

پورفیریو کایتانو داس نیفیس حامی البلدة باسم صاحب الجلالة و پاسم الشعب .

لاحظ الجميع أن البيان لم يقل شيئاً أياً كان عن السراية الخضراء، واعتبر بعضهم ذلك منذراً بالشرّ، بدا الخطر عظيماً حقاً عندما – في غمرة التطورات الهامة التي كانت تجرى – أودع طبيب الأمراض العقلية السراية الخضراء حوالي سبعة أو ثمانية مرضى جدداً ، بينهم أحد أقرباء الحامى . فَسَر الجميع تفسيراً خاطئاً إجراء باكامارته بوصفه تحدياً للحلاق واعتقدوا أن من المرجّح أن يتم في غضون أربع وعشرين ساعة تدمير السجن الرهيب وإيداء طبيب الأمراض العقلية السجن .

انتهى اليوم نهاية سعيدة ، بينما كان منادى البلدة يمضى ببرقه من ناصية إلى ناصية يقرأ البيان ، كان الأهالى يجوبون الشوارع ويقسمون

nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version

أنهم مُستعدُّون الموت من أجل الحامى ، لم تكن هناك سوَى هتافات قليلة جداً تعارض السراية الخضراء ، لأن الأهالى كانوا واثقين من أن الحكومة سرعان ما ستقوم بإزالتها ، أعلن بورفيريو ذلك اليوم إجازة رسمية ، ولخلُق تَحالُف بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية ، طلب من الأب لوپيس أن يحتفل بهذه المناسبة بإقامة تسبيحة شكُر ، أصدر القسيس رفضاً علنياً .

" هُل يمكنني أن أفترض على الأقل " ، سأل الحلاق بتجهُّم يُندر بالسوء ، " أنك لن تتحالف مع أعداء الحكومة ؟ "

" كيف يمكننى أن أتحالف مع أعدائك " ، أجاب الأب لوبيس (إن كان بإمكان المرء أن يسمى ذلك إجابة) ، " فى حين أنه لا أعداء لك ؟ أنت تقول في بيانك أنك تحكم بموافقة إجماعية " .

لم يتمالك الحلاق نفسه عن الابتسام . حقاً لم تكن هناك تقريباً أى معارضة ضدة ، ويصرف النظر عن قائد جُنود سلاح الفرسان ، والمجلس ، ويعض أعيان البلدة ، هلل له الجميع ؛ وحتى الأعيان لم يعارضوه فى الحقيقة . والواقع أن الناس باركوا اسم الرجل الذى سيحرد إتاجواى أخيراً من السراية الخضراء ومن سيمون باكامارته الرهيب .

* * *

۸ ورطة الصيدلى

فى اليوم التالى غادر پورفيريو واثنان من معاونيه قصر الحكومة (الاسم الجديد لدار البلدية) وانطلقوا نحو مسكن سيمون باكامارته . كان الحلاق يعرف أن ما يلائمه أكثر هو أن يأمر باكامارته بالقدوم إلى القصر لكنه كان يخشى أن يرفض الطبيب وهكذا قرر أن يتجمل بالصبر والأناة فى استخدام سلطاته .

كان كريسيين سواريس في فراشه في ذلك الوقت . كان الصيدلي

يعانى عذاباً عقلياً متواصلاً فى تلك الأيام . دعته صداقته الحميمة مع سيمون باكامارته إلى الدفاع عن الدكتور ، ودعاه انتصار پورفيريو إلى الوقوف إلى جانب الحلاق . وهذا الانتصار ، بالإضافة إلى شدة كراهية الناس لباكامارته ، جعل من غير المجدى وريما من الخطورة بمكان بالنسبة لكريسپين أن يواصل صداقته مع الدكتور ، لكن زوجة الصيدلى ، وكانت امرأة مسترجلة على صلة حميمة جداً مع دونا إقاريستا ، قالت له أنه يدين لطبيب الأمراض العقلية بعهد ولاء . بدت الورطة غير قابلة للحل ، وهكذا تحاشاها كريسپين بالحيلة الوحيدة التى أمكنه أن يدبرها : قال أنه مريض وذهب إلى الفراش ،

مَى اليوم التالى أخبرته زوجته أن پورفيريو ويضعة رجال آخرين يتجهون نحو بيت سيمون باكامارته .

" إنهم ذا هبون لإلقاء القبض عليه " ، فكّر الصيدلي .

قادته فكرة إلى أخرى . دار بخياله أن خطوتهم التالية ستكون إلقاء القبض عليه مو ، كريسيين سواريس ، بوصفه شريكاً في الجريمة . كان الأثر العلاجي لهذه الفكرة غير عادي ، قفز الصيدلي من الفراش ، ورغم احتجاجات زوجته لبس وخرج . ويتفق مُستجلُّو أحداث البلدة جميعاً على أنْ السيدة سواريس أحسَّت براحة كبرى إزاء نُبلُ زوجها الذي كان ذاهباً ، فيما اعَتَقَدَتْ ، للدفاع عن صديقه ، وهم يشيرون بنفاذ بصيرة إلى القُوّة الهائلة التي تملكها فكرة ، حتى إن كانت غير صحيحة ؛ ذلك أن الصيدلي مشي ليس إلى بيت طبيب الأمراض العقلية بل إلى قصر الحكومة مباشرة . عندما وصل إلى هناك عَبِّر عن خيبة أمله لأن الحلاّق كان بالخارج ؛ وكان قد أراد أن يُطمئنه على ولائه وتأييده . والواقع أنه كان قد اعتزم أن يفعل ذلك في اليوم السابق لكنْ منعه المرض – ذلك المرض الذي بَرْهَنَ عليه في تلك اللحظة بكُمَّة مُغتصبة . كان كبار الموظفين الذين تحادث معهم يعرفون صداقته الحميمة مع طبيب الأمراض العقلية ولهذا قُدَّرُوا تقديراً عالياً مَغْزَى هذا الإعلان للولاء . عاملوا الصيدلى بأعظم الاحترام . أخبروه أن الحامى كان قد ذهب إلى السراية الخضراء في مُهمَّة هامَّة لكنه سيعود في الحال . قَدَّمُوا له كُرُسِياً ، ومشروبات منعشة ، والكثير من الإطراء قالوا له أن قضية يورفيريو verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشهير هي قضية كُلّ وطنيّ صادق - الأمر الذي وافق عليه بحماس واقترح أن يؤكّده في بيان قوي إلى نائب الملك .

۱ حالتان نموذجیتان

استقبل طبيب الأمراض العقلية الحلاق في الحال . قال له أنه لا يملك أيّ وسائل المقاومة وأنه لذلك مُستعد الخضوع للحكومة الجديدة . طلب فقط الا يُجبروه على أن يكون حاضراً عند تدمير السراية الخضراء .

" الدكتور واقع في سبوء تفاهم " ، قال پورفيريو بعد هنيهة . " لسنا مُخَرِّبين . عن حَق أو عن غير حَق يعتقد الجميع أن أغلب الأشخاص المحبوسين هنا عقلاء تماماً . لكن الحكومة تقرّ بأن المسألة علمية بحثة وأن القضايا العلمية لا يُمكن حلّها بواسطة التشريعات . أضف إلى ذلك أن السراية الخضراء هي الآن مؤسسة بلدية راسخة . ولهذا يجب علينا أن نتُوسلُ إلى حُلّ وسلط يسمح باستمرار عملها ويهدي الجماهير في أن معاً ".

لم يستطع الطبيب أن يُخفى دهشته ، اعترف بأنه كان يتوقّع ليس تدمير السراية الخضراء وحسب بل كذلك اعتقاله شخصياً ونَفْيه ، وكان آخر شئ في العالم يمكنه أن يتوقعه هو –

" ذلك لأنك لا تقدّر المسؤولية الخطيرة للحكومة حَقّ قدرها " ، قاطع الحائق . " الناس ، في عمّاهُم ، قد يشعرون بسخط مشروع إزاء شئ لا يفهمونه ؛ ولهم الحَقّ ، بالتالي ، في أن يطالبوا الحكومة بأن تعمل حسب أسس بعينها . لكن الحكومة يجب أن تتذكّر واجبها المتمثّل في تعزيز المصلحة العامة ، سواء كانت أم لم تكن هذه المصلحة متفقة تماماً مع المطالب التي قدّمتُها الجماهير ذاتها . والثورة ، التي أطاحت أمس بمجلس بلدى فاسد

وجدير بالازدراء ، تصرخ منادية بتدمير السراية الخضراء . لكن الحكومة ينبغى أن تظل هادئة وموضوعية . وهي تعلم أن إزالة السراية الخضراء لا يمكنها أن تُزيل الجنون . وهي تعلم أن المرضى عقلياً يجب أن يتلقّوا العلاج . وهي تعلم أن المرضى عقلياً يجب أن يتلقّوا العلاج . وهي تعلم أيضاً أنه لايمكنها أن توفّر بنفسها هذا العلاج وأنه ينقصها حتى القُدرة على تمييز العاقل من المجنون . هذه أمور تخص العلم ، وليس السياسة . إنها أمور تحتاج إلى نوع القرار الدقيق المحقول الذي تهيئت أنت ، وليس نحن ، لمارسته . كلّ ما أطلبه أن تساعدني في أن أمنح درجة من الرضا لأهالي إتاجواي . وإذا أقمتم أنت والحكومة جبهة متحدة واقترحتم حلاً وسطاً من نوع ما ، فسوف يقبله الناس . دعني اقترح ، إلا إذا كان لديك شئ أفضل تقترحه ، أن نطلق سراح أولئك المرضى الذين شئفًوا عملياً وأولئك الذين تُعد أمراضهم مُعدلة نسبياً . بهذه الطريقة يمكننا أن نبين كم نحن كرماء وأسخياء دون إعاقة جدية لعملك " .

طُلُّ سيمون باكامارته صامتاً حوالى ثلاث دقائق ثم سال: " كم كان عدد الإصابات في القتال الذي دار أمس؟"

فَكُر الطلاق في أن السؤال غريب إلى حدٌ ما ، لكنه أجاب بسرعة بأن أحد عشر قُتلوا وأن خمسة وعشرين جُرحوا .

" أحد عشر قتيلاً ، خمسة وعشرون جريحاً " ، كَرَّر طبيب الأمراض العقلية مرتين أو ثلاث مرات .

ثم قال أنه لم يوافق على اقتراح الحلاق وأنه سيحاول أن يدبر حلاً وسطاً أفضل ، سيقوم بإبلاغه للحكومة في غُضون أيام قليلة . سال عدداً من الأسئلة عن أحداث اليوم السابق : هُجوم جُنود سلاح الفرسان ، الدفاع ، تبدل المواقف من جانب جُنود سلاح الفرسان ، مقاومة المجلس ، وهلم جرا ، أجاب الحلاق بالتفصيل ، مع التشديد على العار الذي سقط فيه المجلس ، سنلم بأن الحكومة لم تحصل إلى الآن على تأييد أهم رجالات المجتمع وأضاف أن طبيب الأمراض العقلية ربما كان مفيداً للغاية بهذا الخصوص ، ستكون الحكومة مسرورة ، حقيقة ، إذا كان بإمكانها أن تعد بين أصدقائها أسمى شخصية في إتاجواى ، وفي الملكة بأسرها دون شك ، لكن لا شسئ مما قاله الحلاق غير ذلك التعبير على وجه الدكتور الصارم ، لم يُظهر مما قاله الحلاق غير ذلك التعبير على وجه الدكتور الصارم ، لم يُظهر

باكامارته لاغُروراً ولا تُواضعاً ، كان يُصغى في صمت ، جامداً مثل إله من

" أحد عشر قتيلاً ، خمسة وعشرون جريحاً " ، كُرَّر الطبيب بعد أن غادره زُوَّاره . " حالتان نموذجيّتان ، هذا الحلاق تبدو عليه أعراض واضحة للازدواج السيكوباتى . وكدليل على جُنون الأشخاص الذين يُهلّلُون له ، ماذا يمكن للمرء أن يطلب أكثر من واقع أن أحد عشر قُتلُوا وخمسة وعشرين جُرحُوا ، حالتان نموذجيّتان! "

" عاش حامينا المجيد!"، هتف أكثر من ثلاثين شخصاً كانوا ينتظرون الحلاق أمام البيت.

ذهب طبيب الأمراض العقلية إلى النافذة وسمع جانباً من خطاب الأدر:

" لأن هَمِّى الرئيسى ، نهاراً وليلاً ، هو أن أحقّق بإخلاص إرادة الشعب . ثقوا بى وان يخيب أملكم . أطلب منكم شيئاً واحداً لاغير : الزموا الهدوء ، حافظوا على النظام . لأن النظام ، يا أصدقائى ، هو الأساس الذي ينبغى أن تقوم عليه الحكومة "

" عاش بورفيريو! " ، هتف الناس وهم يلوَّحُون بقبعاتهم ،

" حالتان نموذجيّتان " ، غَمْغَم طبيب الأمراض العقلية ،

۱۰ استعادة النظام

فى غضون أسبوع كان هناك خمسون مريضاً إضافياً فى السراية الخضراء، كلهم مُؤيّدُون مُتَحمّسُون للحكومة الجديدة . أحسّ الناس بإهانة

iverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered versio

بالغة . أصيبت الحكومة بذهول ، ولم تعرف كيف ترد . چوان بينا ، وهو حلاق آخر ، قال بصراحة أن پورفيريو " باع حريته المدنية كمواطن اسيمون باكامارته لقاء قدر من الذهب " – هذه العبارة التي جذبت عدداً من أكثر المواطنين سُخُطاً إلى صنف بينا . أدرك پورفيريو ، الذي رأى مُنافسه على رأس انتفاضة مُحتملة ، أنه سيُطاح به إن لم يُغير مسلكه في الحال . لهذا أصدر مَرْسُومَيْن ، أحدهما يُلغي السراية الخضراء والآخر ينفي طبيب الأمراض العقلية من إتاجواي .

لكن چوان بيناً وضيع بجلاء وبلاغة أن هذين المرسومين مُجرد خدعة ، مُجرد خطوة لإنقاذ ماء الوجه ، بعد ذلك بساعتين تم خُلْع بورفيريو وتولَّى چوان بينا العبء الثقيل للحكم ، وجد بينا نُسنَا من البيان الموجه إلى أهالى البلدة ، والمذكرة الإيضاحية الموجهة إلى نائب الملك ، ووثائق أخرى أصدرها سلفه ، وكانت لديه وثائق أصلية جديدة حررها وأرسلها باسمه هو وامضائه هو . وتشير سجلات أحداث البلدة إلى أن صياغة الوثائق الجديدة كانت مختلفة نوعاً ما ، و على سبيل المثال ، حيث كان يتحدث الحلاق الآخر عن " مجلس بلدى فاسد ولا مسؤول " ، تحدث چوان بينا عن " هيئة أفسدتها نظريات فرنسية متعارضة كلية مع المصالح المقدسة لصاحب الجلالة " ،

كان لدى الحاكم الجديد بالكاد وقت لإرسال الوثائق عندما دخلت البلدة قوة عسكرية أرسلها نائب الملك واستعادت النظام . وبناءً على طلب طبيب الأمراض العقلية ، سلمت القرات المسلّحة إليه في الحال پورفيريو وحوالي خمسين شخصاً آخرين ، ووعدت بتسليم سبعة عشر غيرهم من أتباع الحلاق حالما يتم شفاؤهم بما فيه الكفاية من جُروحهم .

تمثّل هذه الفترة في أزمة إتاجواي ذروة نفوذ سيمون باكامارته . كان يحصل على ما يُريد أياً كان . على سبيل المثال ، المجلس البلدى ، الذى أعيد تأسيسه عندئذ ، وافق دون إبطاء على إيداع سيباستيان فريتاس المصحة العقلية . كان طبيب الأمراض العقلية قد طلب هذا في ضوء انعدام التماسك الاستثنائي لآراء عضو المجلس البلدى ، الأمر الذى اعتبره باكامارته علامة واضحة على المرض العقلى . في وقت لاحق حدث نفس الشئ لكريسيين سواريس . عندما علم الطبيب أن صديقه الحميم ونصيره المخلص قد انتقل

فجأة إلى صف الكورنيين ، أمر بإلقاء القبض عليه ونقله إلى السراية الخضراء . لم ينكر الصيدلى تحوّل ولائه لكنه أوضح أنه كان مدفوعاً بخوف رهيب من الحكومة الجديدة . قبل سيمون باكامارته هذا الإيضاح على أنه صادق ؛ لكنه أشار إلى أن الخوف يعتبر من الأعراض الشائعة للشذوذ المقالمة .

ربما كان أقوى دليل صارخ على نفوذ طبيب الأمراض العقلية هو ذلك الإذعان الشديد الذي سلم به المجلس البلدي إليه رئيسه ذاته . كان هذا المسؤول البارز قد أعلن أن الإهانة التي أصابت المجلس لن يغسلها إلا دم الكورنيين . علم باكامارته بذلك من خلال سكرتير المجلس ، الذي كرر كلمات الرئيس بحماس هائل . أودع الطبيب السكرتير السراية الخضراء أولاً ثم انطلق إلى دار البلدية . أبلغ المجلس أن رئيسه يعانى من الـ .. هيموفيرال مانيا * ، وهو مرض اعتزم أن يدرسه أعمق دراسة ، الأمر الذي سيكون له ، كما تمنّى، نفع عظيم للعالم كله . تردد المجلس للحظة ثم أذعن .

مُنذ ذلك اليوم فصاعداً ، ازداد سكّان المصحة العقلية بسرعة أكبر حتى من ذى قبل . ولم يكن بمقدور أحد أن ينطق بكذبة عادية تماماً ، حتى كذبة من شأنها أن تفيده بكل وضوح ، دون أن يتم إيداعه السراية الخضراء في الحال . المتجرون بالفضائح ، المتأنقون تأنقاً زائداً ، الأشخاص الذين كانوا يقضون الساعات في حلّ الألغاز ، الأشخاص الذين كانوا يحشرون أنفسهم في الحياة الخاصة للآخرين ، الموظفون المنتفخون زهواً بالسلطة كلّ هؤلاء جاء بهم عملاء طبيب الأمراض العقلية . استثنى الطبيب المحبين لكن ليس العابثين ، لأنه كان يعتقد أن المحبين يمتثلون لدافع صحى ، وأن العابثين يستسلمون بالعكس لرغبة مرضية في الفرو . لم يتحيز ضد البخلاء ولاضد المسرفين : كان يتم إيداعهم المصحة العقلية على حد سواء ؛ وهذا ما وجعل الناس يقولون أن مفهوم طبيب الأمراض العقلية عن الجنون شمل الجميع من الناحية العملية .

^{*} جُنُونِ التعطُّشِ إلى الدماء

ويعبّر بعض مستجلّى أحداث البلدة عن شكوكهم فى استقامة سيمون باكامارته . وهم يشيرون إلى أن المجلس البلدى أجاز ، بإيعاز منه ، لكلّ الأشخاص الذين يتفاخرون بأنهم من أصل نبيل أن يلبسوا خاتم فضة فى إيهام اليد اليسرى ، ويشير مسجلو أحداث البلدة هؤلاء إلى أن جواهرجياً كان صديقاً حميماً لباكامارته – صار غنيا ، كنتيجة لذلك القانون البلدي . لكن نتيجة أخرى تمثلت فى إيداع لابسى الخواتم السراية الخضراء ؛ حقاً ربّما كان علاج هؤلاء الناس التعساء ، وليس إثراء صديقه ، هدف الطبيب ربّما كان علاج هؤلاء الناس التعساء ، وليس إثراء صديقه ، هدف الطبيب لللمع . لا أحد يعلم علم اليقين أي سلوك من جانب لابسى الخواتم هو الذي دل على مرضهم . فكر بعضهم فى أنه ميلهم إلى الإشارة كثيراً جداً ، خاصة باليد اليسرى ، مهما كان المكان الذي هم فيه – فى البيت ، فى الشارع ، أو حتى فى الكنيسة . ويعلم الجميع أن المجانين يستخدمون الإشارات كثيراً

أين سيقف هذا الرجل " ، قال رجال البلدة البارزون . " أه ، ليتنا أيدنا الكورنيين ! " .

ذات يوم ، بينما كانت الاستعدادات تجرى لحفلة راقصة ستُعام ذلك المساء فى دار البلدية ، أصيبت إتاجواى بصدمة عندما سمعت أن سيمون باكامارته أرسل زوجته هو إلى المصحة العقلية . فى البداية ظُنَّ الجميع أنها خدعة من نوع ما . لكنها كانت الحقيقة المطلقة . تم إيداع دونا إقاريستا فى تمام الساعة الثانية صباحاً .

" كنت أشك دائماً في أنها امرأة مريضة "، قال طبيب الأمراض العقلية ردًا على سؤال من الأب لوبيس ، " اعتدالها في كل الأمور الأخرى كان من الصعب أن يتوافق مع جنونها بالحرير ، والمخمل ، والمخرمات ، والمجوهرات ، هذا الجنون الذي بدأ بعد عودتها من ريودي چانيرو مباشرة ، منذ ذلك الوقت بدأت الاحظها عن قُرْب ، كان كلامها دائماً حول هذه الأشياء . إذا كلمتها عن البلاطات الملكية في عصور سابقة ، أرادت أن تعرف ما نوع الملابس التي كانت النساء يلبسنها . إذا زارتها امرأة أثثاء غيابي عن البيت ، كان الشيئ الوحيد الذي تخبرني به زوجتي ، حتى قبل ذكر غيابي عن البيت ، كان الشيئ الوحيد الذي تخبرني به زوجتي ، حتى قبل ذكر غرض الزيارة ، هو كيف كانت المرأة تلبس وأي مجوهرات أو أصناف ملابس

كانت مناسبة وأيها كانت قبيحة . ذات مرة (وأظن أن قداستك ستتذكر هذا) قالت أنها تعتزم صنَّع فستان جديد كُلُّ سنة من أجل عذراء الكاتدرائية ، كُلُّ هذه الأعراض تدُلُّ على وضع خطير . لكن الخطورة الكاملة لمرضعها صارت ظاهرة جلية الليلة . اختارت كُلّ الملابس التي ستلبسها في الحفل الراقص وقامت بإعدادها وتجهيزها كُلُّها . كُلُّ شيئ باستثناء شيئ واحد : لم تستطع أن تحسم اختيارها النهائي بين عقد من العقيق الأحمر وعقد من الياقوت الأزرق . أمس الأول سالتني أيّ عقد منهما ينبغي أن تلبس . قلت لها أنه لا فَرْق ، وأن كلاً منهما ملائم للغاية ، أمس على الغداء كُرْرَتْ السوال ، بعد الغداء كانت صامتة وغارقة في تفكير حزين . سالتُها ماذا بها . " أريد أن ألبس عقدى الجميل الذي من العقيق الأحمر ، لكن عقدى الياقوت الأزرق رائع جداً " . " إذن البسى العقد الياقوت الأزرق " . " لكننى لن أستطيع في هذه الحالة أن ألبس العقد العقيق الأحمر " . وفي منتصف الليل ، حوالي الساعة الواحدة والنصف ، استيقظتُ ، لم تكُن في الفراش ، نهضت وذهبت إلى حُجِرة الملابس . كانت جالسة هناك ومعها عقدان ، أمام المرأة ، تجرب الأول ثم الآخر . حالة واضحة من حالات الخبل ، حجزتُها في المصحة العقلية في الحال "

لم يَقُل الآب لوبيس شيئاً ، لم يُرْضه الإيضاح تماماً ، أدرك الطبيب ذلك وأخبره أن المرض النوعي لدونا إقاريستا هو الد ... قستيمانيا * ، ولم يكن مُستعصياً على العلاج بحال من الأحوال .

" آمل أن أعالجها تماماً في غُضون أسبوعين ، وعلى أيّ حال أتوقّع أن أتعلّم الكثير جداً من دراسة حالتها " ، قال الطبيب في نهاية حديثه ،

هذه التضحية الشخصية حَسنَت الى حد كبير - صورة الدكتور اللامع عند الناس . الشك ، عدم الثقة ، الاتهامات - نفاها جميعا إيداع زوجته هو والتى أحبها من كُل قلبه ، ولم يكن بمستطاع أحد أبدا بعد ذلك أن يتهمه بدوافع غير تلك المتصلة بالعلم ذاته ، كان فوق كُلُ شَكَّ رجُلاً يتسم بالأمانة

^{*} جُنون الملابس،

والاستقامة وبالموضوعية العميقة ، كان يجمع في شخص واحد بين كاتو وأبوقراط .

* * *

۱۱ الإفراج والابتهاج

ندع القارئ ، الآن يُشارك أهالي إتاجواي دهشتهم عندما علموا ذات يوم أن مجانين السراية الخضراء قد أطلق سراحهم .

" کُلهم ؟ "

" کُلّهم"

. كهم . " مُستحبل ، البعض رُيّما ، لكنْ الكُلّ ؟ "

" الكُلّ . هو ذاته قال ذلك في بيان أرسله اليوم الى المجلس البلدى " . أبلغ طبيب الأمراض العقلية المجلس ، أؤلا ، أنه راجع الإحصاءات ووجد أن أربعة أخماس سكّان إتاجواى موجودون في السراية الخضراء ؛ ثانياً ، أن هذا العدد الكبير غير المتناسب للمرضى جعله يقوم بإعادة بحث نظريته الأساسية عن المرض العقلي ، تلك النظرية التي تُصنف كمرضى كلّ الأشخاص غير المتوازنين عقلياً ؛ ثالثاً ، أنه كنتيجة لإعادة البحث هذه في ضوء الإحصاءات ، استنتج ليس فقط أن نظريته غير سليمة بل أيضاً أن السبواء يكمن في الافتقار إلى التوازن وأن غير الأسوياء ، المرضى حقاً ، هم المتوازنون حقاً ، العقلاء مائة في المائة ؛ رابعاً ، أنه نظراً لما سبق سيطلق سراح الأشخاص المحتجزين الآن وسيقوم بإيداع السراية الخضراء كلّ الأشخاص الذين سيكتشف أنهم مرضى عقلياً وفقاً للنظرية الجديدة ؛ خامساً ، أنه سيستمر في تكريس نفسه للسعى وراء الحقيقة العلمية وأنه يثق

verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى أن المجلس سيواصل منحه تأييده ؛ سادساً ، أنه سيقوم برد الاعتمادات المالية التى تلقّاها لإطعام وإيواء المرضى ، تُخْصَم منها المبالغ التى تم إنفاقها فعلاً ، وهذا ما يمكن التحقُّق منه عن طريق فَحْص سجلاته وحساباته .

لم تكن دهشة إتاجواى أكبر من ابتهاج أقارب وأصدقاء المرضى السابقين . الولائم ، الحفلات الراقصة ، الفوانيس الورقية الملوئة ، الموسيقى ، كُلّ شئ للاحتفال بالمناسبة السعيدة ، لن أصف المهرجانات ، لانها هامشية ليس إلا بالنسبة لهذا السبّجلّ التاريخي ؛ يكفى أن نقول أنها كانت جيدة الإعداد ، وطويلة ، ولاتنسني .

* * *

١٢ الجزّء الا'خير من البند الرابع

انتهت المهرجانات ، استأنف المرضى السابقون حياتهم السابقة ، كُلّ شيئ بدا طبيعياً ، عاد عُضو المجلس فريتاس ورئيس المجلس إلى مكانيهما المعتادين ، وحكم المجلس إتاجواى دون تدخّل خارجى ، پورفيريو الحلاق "عانى كُلّ شئ "، كما قال الشاعر عن نابليون ؛ والواقع أن پورفيريو عانى أكثر من نابليون ، لأن نابليون لم يتم إيداعه السراية الخضراء أبداً . اكتشف الحلاق الآن أن الضمان الباهت لحرفته أفضل من الكوارث المتألقة للسلطة . حُوكم على جرائمه وحكم عليه ، لكن أهالى البلدة توسلوا إلى صاحب الجلالة ليصفح عن حاميهم سابقاً ، وصفح صاحب الجلالة . قُررت السلطات ألا تحاكم جوان بينا ، لأنه أطاح بحاكم غير شرعى ، ويعتقد مُسَجّلو أحداث إتاجواى أن إعفاء بينا من الاتهام والمحاكمة هو الذى أوحى بمثلنا الماثور الشائع :

القاضى لن يُلقى المسؤولية أبداً على مُحتال يسرق من مُحتال آخر

مَثَلُ لا أخلاقي ، لكنه جُمّ الفائدة .

لم تعد هناك أيّ شكاوى ضد طبيب الأمراض العقلية . لم يكُن هناك حتى استياء من أفعاله السابقة . والواقع أن المرضى السابقين كانوا يحسون بالعرفان لأنه أعلن أنهم عُقلاء ؛ وأقاموا حفلة راقصة على شرفه . ويروى مُسَجِّل أحداث البلدة أن دونا إقاريستا قررت في بداية ألامر أن تترك رُوجها لكنها غيرت رأيها عندما فكرت ملياً في مدى خواء حياتها بدونه . لقد تغلّب إخلاصها لهذا الرجُل صاحب المبادئ السامية على استيائها بسبب ما أصابها من إهانة ، وعاشا معاً أسعد من أي وقت مضي .

على أساس النظرية الجديدة عن الأمراض العقلية والمشروحة في البيان ، استنتج كريسبين سواريس أن حصافته التي تمثّلت في تحالفه مع الثورة كانت مظهراً من مظاهر صحته العقلية وقد تأثر تأثّراً عميقاً بشهامة باكامارته . مدّ الطبيب يده الى صديقه القديم عند إطلاق سراحه من السراية الخضراء .

رجُل عظيم " ، قال الصيدلي لزوجته ،

لا حاجة بنا إلى أن نشير إشارات خاصة إلى إطلاق سراح كوستا ، كويليو ، وبقية المرضى المذكورين في هذا السّجلّ . كان كُلّ شَخْص حُرًا الآن في أن يستأنف طريقته السابقة في الحياة . على سبيل المثال ، مارتيم بريتو ، الذي كان قد تمّ إيداعه المصحة العقلية بسبب خطاب يشتمل على امتداح زائد لدونا إقاريستا ، ألّف الآن خطاباً آخر على شرف الدكتور ، "الذي رفعت عبقريته الرفيعة جناحيها وطارت عالية فوق قطيع الدهماء إلى أن ضارعت الشمس في ارتفاعها وفي تألّها ".

" اشكرك " ، قال الطبيب . " من الجليّ أنني كنت على حُقّ عندما أطلقت سراحك".

في غُضون ذلك أقر المجلس البلدى ، بدون مناقشة ، تشريعاً محلياً يُنبّه إلى الجزء الأخير من البند الرابع من بيان باكامارته ، أجاز التشريع الجديد لطبيب الأمراض العقلية إيداع السراية الخضراء كُلّ الأشخاص الذين يكتشف أنهم مُتوازنون عقلياً تماماً . لكن المجلس ، مُتذكراً تجربته المؤلمة

فيما يَتصل برد الفعل الشعبى إزاء المصحة العقلية ، و أضاف شرطاً نص قيه على أنه ، ما دام الغرض من التشريع هو توفير فرصة الدكتور لاختبار نظريته الجديدة ، سيبقى التفويض سارى المفعول لمدة سنة واحدة فقط ، واحتفظ المجلس لنفسه بالحق في إغلاق المصحة العقلية في أي وقت إذا تطلّب الحفاظ على النظام العام ذلك .

اقترح سيباستيان فريتاس تعديلاً فحواه أنه لا يجوز تحت أي ظرف من الظروف إيداع أعضاء المجلس السراية الخضراء . تم إقرار التعديل بالإجماع تقريباً ، كان الصوت الوحيد المعارض هو صوت جالقاو عُضو للمجلس . أكّد بهدوء أن المجلس ، إذ يُجيز القيام بتجربة علمية على أهالى إتاجواى ، سيكون هو ذاته لا علميًا إذا استثنى أعضاءه أو أي قسم من السكان من الخضوع للتجربة . "إن وظيفتنا العامة " ، قال ، " لا تستثنينا من الجنس البشرى " . لكنهم أسكتوه صائمين .

قبل سيمون باكامارته التشريع المحلّى بكل قيوده . وفيما يتعلّق باستثناء أعضاء المجلس ، أعلن باكامارته أنهم ليسوا مُعرّضين بحال من الأحوال لخطر الإيداع ، لأن تصويتهم لصالح التعديل أظهر بوضوح أنهم غير مُتوازنين عقلياً . لم يطلب سوى تسليم جالقاو إليه ، لأن هذا العُضْو أَبْدَى تَوازُناً عقلياً استثنائياً ، ليس فقط في رفضه للتعديل بل أكثر من ذلك في الهدوء الذي احتفظ به في وَجُه المعارضة والإساءة غير المعقولتين من جانب زملائه ، وافق المجلس على الطلب في الحال .

فى ظلّ النظرية الجديدة لم تكن تكفى أعمال أو تصريحات قليلة لشخص من الأشخاص لتقرير أنه غير سوى : كان من الضرورى القيام ببحث طويل ودراسة شاملة لتاريخه ، الأب لوپيس ، على سبيل المثال ، لم يُنقل إلى السراية الخضراء إلا بعد مُضى ثلاثين يوماً على إقرار التشريع الجديد ، أمّا فى حالة زوجة الصيدلى فقد تطلّب الأمر خمسين يوماً من الدراسة ، طاف كريسيين سواريس بالشوارع مُهتاجاً ، وكان يقول لكلّ شخص أنه سيقتلع أُذنَى الطاغية من مكانهما ، أحد الأشخاص الذين تكلّم معهم - وكان شخصاً يكنّ ، كما كان الجميع يعرفون ، كراهية شديدة معهم - وكان شخصاً يكنّ ، كما كان الجميع يعرفون ، كراهية شديدة

لباكامارته - جَرى وحَذَّر طبيب الأمراض العقلية . شكره باكامارته بحرارة وحجزه في المصحة اعترافاً منه باستقامته وحُسْن نيَّته حتى تجاه شَخْص كان بمقته ، وهذه علامة من علامات التوازن العقلي الكامل .

" هذه حالة غير مآلوفة إلى حُدّ كبير " ، قال الدكتور لدونا إقاريستا .

عندما وصل كريسبين سواريس إلى بيت طبيب الأمراض العقلية ، كان الحُزْن قد تغلَّب على الغضب . لم يقتلع أُذُنَى باكامارته من مكانهما . حاول الطبيب أن يُطيّب خاطر صديقه القديم . قال له أن زوجته ربّما كانت تعانى من إصابة في المخ ، وأن هناك فُرْصة طيبة للشفاء ، وأنه في الوقت نفسه ينبغي أن يحتفظ بها طبعاً في الحَجْز . لكن طبيب الأمراض العقلية اعتبر من المرغوب فيه أن يقضى سواريس معها جانباً كبيراً من الوقت ، لأن رياء الصيدلي وعدم أمانته الفكرية قد يُساعدان في التغلّب على السمو الخلقي الذي وجده الدكتور عند مريضته .

" ليس هناك مايبرّر " ، قال الطبيب ، " ألا تتناولا أنت وروجتك وجبة الظُهْر الخفيفة ثم الغداء معا كل يوم في السراية الخضراء ، بل يمكنك أن تبقى معها ليلاً " .

كلمات سيمون باكامارته وضعت الصيدلي في ورَطّة جديدة . كان يريد أن يكون مع زوجته ، لكنه في نفس الوقت كان يفزع من العودة إلى السراية الخضراء . ظل متردداً عدة دقائق . ثم خلصته دونا إقاريستا من الوَرْطَة : وعدّت بأن تَزُور زوجته كثيراً وأن تحمل الرسائل بين الاثنين . قبل كريسيين سواريس يديها شاكراً . صدمت أنانيته الجبانة طبيب الأمراض العقلية وكأنها تَدلُّ على منتهى السمق تقريباً .

رغم أنه احتاج إلى نصف سنة تقريباً للعثور على ثمانية عشر مريضاً للسراية الخضراء ، لم يتراخ باكامارته عن بذل جهوده لاكتشاف المجانين . دهب من شارع إلى شارع ، ومن بيت لبيت ، يُلاحظ ، ويستجوب ، ويدون مُلاحظاته . وعندما كان يُودع شخصاً المصحة العقلية ، كان يفعل ذلك بنفس إحساس الإنجاز الذي كان يُودع به من قبل دزينة من الأشخاص دفعة واحدة . عدم التناسب هذا كان يُؤكّد في حدّ ذاته سلامة نظريته الجديدة .

أخيراً غَدت الحقيقة حول المرض العقلى معروفة بكل وضوح . ذات يوم أودع باكامارته القاضى المتجوّل السراية الخضراء ، بعد أسابيع من الدراسة التفصيلية لسلوك الرجل والاستجواب الشامل لأصدقائه ، الذين شملوا كُلّ الأشخاص الهامين في إتاجواي .

أكثر من مرّة كان الطبيب على وشك أن يُرسل شخصاً إلى السراية الخضراء، ثم سرُعان ما كان يكتشف عيباً خطيراً في اللحظة الأخيرة . في حالة المحامي سالوستيانو ، على سبيل المثال ، اعتقد باكامارته أنه عثر على امتزاج كامل بين الصفات الفكرية والخلقية بحيث يكون من الخطورة بمكان أن يترك الرجل مُطلق السراح . طلب من أحد عملائه أن يأتي به إلى المصحة ، لكن العميل ، الذي كان يعرف محامين كثيرين ، شكّ في أن يكون عاقلاً حقاً وأقنع باكامارته بأن يسمح بتجربة بسيطة . كان لهذا العميل صديق حميم وكان متهماً بتزوير وصية . نصح هذا الصديق بأن يستخدم سالوستيان كمحام له .

" هل تعتقد حقاً أنه سيقبل القضية ؟ "

" سيقبل بالتأكيد ، اعترف له بكل شئ سوف ينقذك من العقوبة " .

ذهب صديق العميل إلى المحامى ، وأقرّ بأنه زَوَّر الوصية ، وتَوَسَّل إليه أن يقبل القضية ، لم يطرد سالوستيانو الرجُل ، دُرسَ التَّهُم والأدلَّة التى تثبتها ، فى المحكمة جادل بإسهاب كبير ، مُبرهناً بصورة مُقنعة أن الوصية حقيقية ، بعد حُكْم بالبراءة تلقّى المدّعى عليه التركة وفقاً لشروط الوصية ، ولهذه التجربة يدين هو والمحامى العلاّمة كلاهما بحريتهما .

قلّما يَفْوَت شَيِّ على إدراك رجلُ ذي بصيرة أصيلة . ومنذ بعض الوقت كان سيمون باكامارته قد لاحظ حكمة ، وصبر ، وتفاني العميل الذي ابتكر هذه التجربة . وهكذا قرَّر أن يُودعه السراية الخضراء ، التي أعطاه فيها معزلاً من معازل المرضى الممتازة .

تم فَصل المرضى في فئات ، في أحد الأروقة كان يعيش فقط أولئك الذين كانت صفتهم الأخلاقية البارزة هي التواضع ، احتل المتسامحون على نحو بارز رواقاً آخر ، وهناك أيضاً أروقة أخرى خُصنص كُل منها لكُل من الصادقين ، الصرحاء ، الأوفياء ، الاسخياء ، الحكماء ، بطبيعة الحال ،

verted by Liff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجب أصدقاء وأقارب المجانين النظرية الجديدة ، بل حاول بعضهم إقناع المجلس البلدى بإلغاء التفويض الذى كان قد منحه لباكامارته ، لكن أعضاء المجلس تذكّروا بمرارة كلمات زميلهم السابق جلفاد ؛ لم يكونوا يرغبون فى أن يروه بينهم من جديد ، وهكذا رفضوا ، بعث سيمون باكامارته برسالة إلى المجلس ، لا ليشكره بل ليهنّئه على هذا الموقف الصادر عن الحقد الشخصى .

بعض الأشخاص البارزين في إتاجواى ذهبوا عندئد سرًا إلى الحلاق
پورفيريو . وعَدوا بأن يدعموه بالرجال ، والمال ، والنفوذ إذا قاد حركة أخرى
ضد طبيب الأمراض العقلية والمجلس البلدى . أجاب بأن الطموح قاده ذات
مرّة إلى الانتهاك العنيف للقانون لكنه أدرك الآن حماقة مثل هذا السلوك ؛
وبأن المجلس ، بحكمته ، قوصن الطبيب أن يقوم بتجربته الجديدة لدة سنة
واحدة ؛ وبأن على أى شخص يعترض على ذلك أن ينتظر إلى أن تنتهي
السنة وعندئذ – إذا أصر المجلس على تجديد التفويض – عليه أن يقدم
التماسا إلى نائب الملك ؛ وبأنه لن يُوصى مرة أخرى باللجوء إلى طريقة لم
تُحقّق نفعاً وأدّت إلى عديد من حالات الوفاة والإصابات الأخرى ، الأمر الذي
سيكون عبناً أبدياً على ضميره .

أَصنفَى طبيب الأمراض العقلية باهتمام كبير عندما أخبره أحد عملائه السريين بما قاله پورفيريو ، بعد ذلك بيومين تم حَجْز الحلاق في السراية الخضراء ، " أنت مُدان إذا فعلت وأنت مُدان إذا لم تفعل " ، علق المريض الجديد .

عند إنتهاء السنة التى سمع بها لإثبات النظرية الجديدة ، فَوَض المجلس البلدى طبيب الأمراض العقلية بأن يُواصل عمله سنة أشهر أخرى كَى يجرّب طرُق العلاج ، ونتيجة هذه التجربة الإضافية من الأهمية بحيث أنها تستحق عشرة فصول ، لكننى سأكتفى بفصل واحد ، وهذا الفصل سيقدم للقارئ قُدْوة ملهمة للموضوعية وإنكار الذات العلميين .

۱۳ المزيد والمزيد

مهما كان ما بلغه من اجتهاد ونفاذ بصيرة في اكتشاف المجانين ، تقوق سيمون باكامارته على نفسه عندما شرع في علاجهم ، ويُسلّم كُلّ مُسحّلي أحداث البلدة بأنه وفق في شفاء حالاته على نحو مُذْهل للغاية .

من الصعب حقّا أن نتصوّر نظاماً علاجياً أكثر عقلانية . فبعد أن قسم المرضى إلى فئات حسب الصفات الغالبة لديهم ، شرع الدكتور في تحطيم تلك الصفات ، استعمل علاجاً في كُلّ حالة ليغرس الصفة المميزة المناقضة تماماً ، وكان يختار الدواء النوعي والجرعة الأكثر ملاحمة لعمر المريض ، وشخصيته ، وحالته الاجتماعية .

لعل حالات التواضع تصلح كأمثلة . في بعض هذه الحالات ، كان من المكن أن يكفى شعّر مُستعار ، أو معْطَف جميل ، أو عضاً لرد العقل إلى المجنون . في حالات أكثر تعقيداً لجأ طبيب الأمراض العقلية إلى الماس ، والشهادات الفخرية ، وما أشبه ذلك ، المرض الذي أصاب أحد المجانين المتواضعين ، وكان شاعراً ، قاوم كُل أنواع العلاج ، كان باكامارته قد يئس تقريباً من علاجه ، عندما خطرت على باله فكرة : أن يجعل المنادي يطوف ببوقه ويعلن أن هذا المريض في عظمة جارثار أو بندار .

" كان الأمر أشبه بمعجزة " ، قالت أمّ الشاعر لإحدى صديقاتها . " إبنى شنفى الآن تماماً ، مُعجزة ... "

مريض آخر ، من فئة المتواضعين أيضاً ، بدا مستعصياً على العلاج . لم يكن العلاج النوعى المستخدم للشاعر ليصلح ، لأن هذا المريض لم يكن كاتباً ؛ والواقع أنه كان يوقع باسمه بالكاد . لكن الدكتور باكامارته أثبت أنه على مستوى التحدى ، قرر أن يجعلهم يُعيَّنُون المريض سكرتيراً لفرع الاكاديمية الملكية في إتاجواى . كان سكرتير ورئيس كُل فرع يتم

تعيينهم بقرار من الملك . وكانوا يتمتعون بامتياز أن يُخاطبوا بلقب صاحب السعادة وامتياز أن يلبسوا مدالية ذهبية . رفضت الحكومة فى لشبونه إلتماس باكامارته فى بداية الأمر ؛ لكن بعد أن أوضح الطبيب أنه لم يطلب التعيين كتشريف حقيقى لمريضه بل فقط كوسيلة علاجية لمداواة حالة صعبة ، وبعد تَدخُل وزير المستعمرات (وهو ابن عَم للمريض) ، وافقت الحكومة فى نهاية الأمر على الالتماس . وجرى التهليل للشفاء الناتج من ذلك على أنه مُعجزة أخرى .

" مُدُّهُش ، مُدُّهُش حَقاً " ، قال الجميع عندما رأوا التعبير الصحيّ المتباهى على وَجْهَى المجنونين السابقين .

كانت طريقة باكامارته ناجحة من الناحية الجوهرية في كُلِّ حالة ، رغم أن الصنفة الغالبة لدى المريض أثبتت في قليل من الحالات أنها منيعة حصينة . في هذه الحالات انتصر طبيب الأمراض العقلية عن طريق الهُجوم على نُقطة أخرى ، شأنه في ذلك شأن قائد عسكرى استراتيجي بارع .

مع نهاية خمسة أشهر كان كُلُّ المرضى قد تُمْ شفاؤهم . كَانْتُ السراية الخضراء خالية . أما عُضو المجلس جالقاو ، المبتلَى بكل تلك القسوة بالإنصاف والاعتدال ، فكان سعيد الحظُ إذْ فقد عَمًا ، وأنا أقول سعيد الحظُ لأن وصية العمّ كانت مُلتبسة وحصل جالقاو على تفسير لها لصالحه عن طريق رشوة قاضيين ، باستقامة معهودة أقرَّ الدكتور بأن الشفاء تحقَّق ليس بواسطة بل بواسطة القُوَّة العلاجية الطبيعة . كان الأمر على خلاف ذلك تماماً في حالة الأب لوبيس ، كان باكامارته يعلم أن القسيس يجهل اللغة اليونانية تماماً ، ولهذا طلب منه أن يقوم بتحليل نقدى للترجمة السبعينية * للعهد القديم ، قبل الأب لوبيس المهمة ، وفي غضون شهرين ألف كتاباً حول الموضوع وأطلق سراحه من السراية الخضراء ، أما زوجة الصيدلى ، فلم تبق المناك سوى فترة قصيرة .

" لماذا لا يأتى كريسيين لزيارتى ؟ " كانت تسال كل يوم .

^{*} باليونانية

كانوا يجيبون عليها بإجابات متباينة وأخيراً قالوا لها الحقيقة بلا تزويق - لم يكن بإمكان العقيلة الفاضلة أن تكتم عارها وسخطها . شملت انفجارات غضبها تعابير مثل " فأر " ، " جبان " ، " إنه يتحايل حتى على الروشتات الطبية " . لاحظ سيمون باكامارته أنه سواء كانت أو لم تكن هذه المراشخيصات لزوجها صحيحة ، فهى تثبت بوضوح عودة هذه المرأة إلى العقل . وأطلق سراحها بلا إبطاء .

إذا كنت تعتقد أن طبيب الأمراض العقلية كان يشع سعادة وهو يرى آخر نزيل يغادر السراية الخضراء ، فمن الجلى أنك لم تَفْهم الرجل بعد . كان شعاره هو المزيد والمزيد ، وفيما يخصه فإن اكتشاف النظرية الصحيحة للمرض العقلى لم يكن كافياً إقامة حكم العقل في إتاجواى مع الإزالة الكاملة للشذوذ النفسى ، المزيد والمزيد ! شيّ مّا أشعره أن نظريته الجديدة كانت تحمل في داخلها نظرية أحدث وأفضل .

" فَلْنَرَ " ، قالَ لنفسه ، " ما إذا كان بمقدروى أن أكتشف الحقيقة الجوهرية النهائية " .

أخذ يذرع الغرفة الضخمة جيئة وذهاباً، مارًا بخزانات الكتب . خزانة بعد خزانة – أضخم مكتبة في كل أنحاء ممتلكات صاحب الجلالة فيما وراء البحار . روب بو شامبر من حرير موشى بالذهب (هدية من إحدى الجامعات) كان يغطى الجسم المهيب والمتقشف للطبيب الشهير . كانت القمة المنبسطة ارأسه ، الذي أحالته أفكار العالم التي لا نهاية لها إلى رأس أصلع ، مُغَطّاه بشعر مُستعار . أمّا قدماه ، اللتان لم تكونا صغيرتين ولا ضخمتين ، بل متناسبتين تماماً مع جسمه ، فكان يغطيهما زوج عادى من الأحذية بأبازيم نحاسية بسيطة . لاحظ الاختلاف : تلك الأشياء التي كانت لها أي علاقة بعمله كعالم هي وحدها التي كانت مُترفة بأي معنى من المعانى ؛ أما بقية الأشياء فكانت بسيطة ومُقتصدة .

هكذا أخذ طبيب الأمراض العقلية يذهب ويجئ في المكتبة الفسيحة الأرجاء، غارقاً في التفكير، غريباً على كل شئ فيما عدا المشكلة العويصة الغامضة المتمثلة في علم أمراض النفس، توقّف فجأة، سأل نفسه، وهو يقف أمام نافذة، وكُوعَه الأيسر يستند على يده اليمنى المفتوحة وذقنه على

يده اليسرى المضمومة: " هل كانوا كُلّهم مجانين حَقاً ؟ هل شفيتهم حقاً ؟ أليس عدم التوازُن العقلى طبيعياً ومتأصلاً بحيث كان من المحتّم أن يؤكّد نفسه بمساعدتى أو بدون مساعدتى ؟ "

سرعان ما تُوصِيل إلى هذا الاستنتاج: العقول البالغة الترازُن في ظاهر الأمر والتي فرغ لتوه من " علاجها " كانت في الواقع غير متوازنة طول الوقت ، تماماً مثل عقول بقية الناس السليمة بكل وضوح . كان مرضها الظاهري سطحياً وعابراً .

فكر طبيب الأمراض العقلية ملياً في نظريته الجديدة بمشاعر مختلطة . كان سعيداً لأنه ، بعد طول الدراسة ، والتجريب ، والنضال ، استطاع أخيراً أن يؤكد الحقيقة المطلقة : لم يكن هناك قط وان يكون هناك أبداً أي مجانين في إتاجواي أو في أي مكان آخر . لكنه كان تعيساً لأن شكا هاجمه ، ففي حقل الطب العقلي كان لا بد لتعميم عريض كهذا ، مطلق كهذا ، أن يكون خاطئاً على نحو حتمي تقريباً . فقط لو أمكنه أن يعثر على مجنون واحد فاضل وبالغ التوازن على نحو لا سبيل إلى إنكاره ، لغدت النظرية الجديدة مقبولة – ليس كمبدأ مطلق بلا استثناءات ، وهو أمر غير مقبول ، بل كقاعدة عامة قابلة للتطبيق على أغلب الحالات الاستثنائية تقريباً .

وَفْقاً لمسَجِلَى أحداث البلدة ، شكلت هذه الصعوبة أفظع عاصفة من العواصف الروحية التى مر بها باكامارته الشُجاع في مجرى حياته المهنية العاصفة . لكن العواصف تُخيف الضعفاء وحدهم . وبعد عشرين دقيقة بُدد فَجُر رقيق لكن مُشرق الظلام من وجه طبيب الأمراض العقلية .

" طبعاً ، هذا هو ؛ طبعاً " ،

ما كان يقصده سيمون باكامارته هو أنه عثر في نفسه على الحالة الكاملة التي لا سبيل إلى إنكارها للجنون . كان يملك الحكمة ، والصبر ، والتسامح ، والصدق ، والولاء ، والشجاعة الأدبية – كُلِّ الصفات التي تجتمع لتصنع مجنوناً بكُلِّ معنى الكلمة .

لكنه شك عندئد في ملاحظته الشخصية لنفسه . لابُد أنه ناقص بطريقة ما بالتأكيد . ليتحقق من الحقيقة فيما يتعلق بنفسه دعا إلى اجتماع

لأصدقائه واستجربهم . تُوسُّل إليهم أن يجيبوا بصراحة مطلقة . وافقوا جميعاً على أنه لم يكن مخطئاً .

" لا عبوب ؟ "

" لا عيوب على الإطلاق " ، أجابوا كلُّهم في نفس واحد .

" لا ردائل ؟ "

" لا رذائل " ،

" كأمل من كل ناحية ؟ "

" من كل ناحية " ،

" لا ، مستحيل ! " صاح طبيب الأمراض العقلية . " لا يمكننى أن أصدق أننى متفوّق إلى هذا الحد على زملائى البشر . إنكم تتركون أنفسكم تتأثّرون بعاطفتكم نحوى " .

أَصِرٌ أَصِدَقَاؤُهُ ، تَردُّدُ الطبيبِ ، لكن الأب لوپيس جعل من الصعب عليه ألا تقبل حكمهم .

" هل تعرف لماذا تُمانع في أن تتعرَّف في نفسك على الصفات السامية التي نراها كلنا بكلٌ هذا الوضوح " قال القسيس . " ذلك لانك تملك صفة إضافية تزيد من قيمة الصفات الأخرى: التواضعُم " .

أحنى سيمون باكامارته رأسه ، كان في آن معا حزيناً وسعيداً ، لكنه كان سعيداً أكثر منه حزيناً ، أودع نفسه السراية الخضراء من غير إبطاء ، توسل إليه زوجته وأصدقاؤه ألا يفعل ، قالوا له أنه سليم العقل بكل معنى الكلمة ، انتحبوا ، ناشدوا ، كُل ذلك بدون جَدْوي ،

" هذه مسألة علم ، مسألة نظرية جديدة " ، قال ، " وأنا الحالة الأولى لتطبيقها ، إننى أجسد النظرية والممارسة في آنٍ معاً " .

" سيمون ! سيمون ، حبيبى ! " صاحتُ زوجته . كان وجهها غارقاً في الدموع .

لكن الدكتور ، وكانت عيناه تتقدان بالاقتناع العلمي ، دفعها بعيداً بلطف . دخل السراية الخضراء ، وأغلق الباب خلفه ، وبدأ مهمة علاج نفسه . ويُقرَّر مُسَجَّلُو أحداث البلدة ، مع ذلك ، أنه توفّى بعد ذلك بسبعة عشر شهراً سليم العقل كما كان دائماً . ويجرؤ بعضهم حتى على القول أنه

onverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان المجنون الوحيد (بالمعنى المبتذل أو اللاباكامارتى) الذى تُمّ إيداعه المصحة العقلية في أي وقت من الأوقات . لكن هذا الرأى لا ينبغى أخذه مأخذ الجد . كان مبنًا على ملاحظات تُنْسَب إلى الأب لوبيس - خطأ دون شك ، لأن القسيس ، كما كان الجميع يعرفون ، أحب طبيب الأمراض العقلية وأعجب به ، على أي حال ، دفن أهالى إتاجواى البقايا الفانية لسيمون باكامارته بعظيم الأبهة والإجلال .



verted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ماشادو دی اسیّس ۱۸۳۹ – ۱۹۰۸

رغم مكانته العالية في الأدب البرازيلي الحديث و آداب اللغة البرتغالية الحديثة بوجه عام ، ورغم أهميته التي لا جدال فيها كروائي عالمي ، ظلّ ماشادو دي أسيس شبه مجهول في عالمنا العربي . ولم تعرف العربية حتى الآن ، على حدّ علمي ، سوى واحدة من روائعه الروائية هي كونكاس بوريا التي نقلها المرحوم سامي الدروبي إلى اللغة العربية في ١٩٦٧ .

ولد چواکیم ماریا ماشادو دی أسیس فی ۱۸۳۹ فی مدینة ریو دی جانيرو ، التي لم يغادرها قط ، لأسرة فقيرة ملونة . كان أبوه نقّاشاً متواضعاً ، وكان خلاسيا (« مولاتٌو » : أحد الأبوين أبيض والآخر أسود) . وكانت أمه برتغالية متواضعة عملت خادمة عند بعض الأسر الغنية . ماتت أمه وهو طفل وتزوج أبوه من أخرى كانت خلاسية مثله وكانت أماً ثانية للطفل . وبعد أن توفّى أبوه ظلّت ترعاه رعاية الأم إلى أن انفصل هو عنها . عمل صبياً في مطبعة (وعمره ١٥ سنة) ، ومصحّح بروقات في مكتبة خاصة ، ومحرراً في جريدة مرموقة ، ومندوباً لها في مجلس الشيوخ (في الحادية والعشرين). وفي الخامسة والعشرين بدأ يحقق شهرة في ريو بمسرحياته ومراجعاته الأدبية وأعمدته السياسية . عمل موظفاً حكومياً وظل كذلك إلى آخر حياته فتقلّب في وظائف عديدة وشغل أرفع المناصب الحكومية . في الثلاثين من عمره (١٨٦٩) تزوج من برتغالية مثقفة كانت تكبره بخمس سنوات هي كارولينا أوجوستا خافيير دى نوفايس التي كانت سليلة أسرة نبيلة من البارونات ، بعد مقاومة من بعض أهلها ، لأسباب وأضحة ، وتأييد من أمها ، وكانت حياتهما الزوجية سعادة متصلة على مدى ٣٥ سنة (ولم يرزقا بأولاد) إلى أن توفيت في ١٩٠٤ فكان « كأنه هو الذي مات » قبل أن يلحق بها في ١٩٠٨ مصاباً بسرطان في الفم بعد أن عاش حياة كافح فيها الفقر والأصل الخلاسي ثم نوبات الصرع والخوف الدائم من الجنون ، هذا الجنون الذي حوّل عدداً من رواياته إلى « معرض الجنون » (كونكاس يوريا ، السراية الخضراء ، الخ.)

ابتعد ماشادو بنفسه عن الصراعات السياسية . ورغم أنه كان خلاسياً ، لم يشارك فى الحملة المناهضة للرق ، وإنْ كان قد احتفل بإلغاء الرق (١٨٨٨) ، ولم يحفل بالتطورات السياسية التى انتهت إلى سقوط الامبراطورية (١٨٨٩) ، غير أن ماشادو ركز جهده فى خدمة اللغة كأساس للوحدة الثقافية لبلاده التى منحها آثاراً أدبية خالدة وفى إنشاء الأكاديمية البرازيلية للآداب التى أصبح رئيساً لها كما أصبح العميد المعترف به لأدباء البرازيلية

أحبٌ ماشادو أعمال سويفت ، ستيرن ، مارك توين ، وقبل كل شيء تريسترام شاندى ، (رواية ستيرن) ، وكان يمقت الطبيعيين واميل زولا النجم الصاعد في سماء الأدب أنذاك .

تقع أعمال ماشادو دى أسيس في ٣١ مجلداً غير أن شهرته تقوم على رواياته الثلاث : مذكرات براس كوباس بعد وفاته (١٨٨٠) ، كونكاس بوربا (۱۸۹۱) ، دون كارموري (۱۹۰۰) . ويهذه الروايات وبأعمال نثرية وشعرية أخرى حقق ماشادو مكانته المرموقة في الأدب البرازيلي والعالمي ، ويصفه خوسيه لويس مارتنيث ، الناقد المكسيكي ، بأنه « الشخصية البارزة للآداب البرازيلية » ويعدُّه « واحداً من كبار القصاصين ا العالميين » ، ويقول عنه دُدلى فيتس : « كان ماشادو دى أسيس قوة أدبية تتجاوز القومية واللغة ، تضارع دون شك فلوبير ، أو هاردي ، أوجيمس » ، ويصفه د. شاكر مصطفى بأنه « رأس الكلاسيكيين الخالدين في أدب البرازيل » ويضيف : " وكما يرتبط اسم " غوته " في أذهاننا بالقمم التي تسنّمها الأدب الألماني على جبل الأولب ، وكما يثير في أذهاننا اسم "شكسبير " روائم الأدب الانجليزي ، يرتبط الأدب البرازيلي ، في تاريخ انبثاقه وقوته ، باسم دى أسيس " ، ويقول عنه روجيه باستيد في مقدمته لرواية كونكاس بوربا: « ليس في الأدب البرازيلي ، بين الاتجاه الباروكي في القرن السابع عشر والاتجاه الحديث في القرن العشرين ، فترة كلاسيكية كما في معظم الآداب الأوربية . غير أن هناك كاتباً كلاسبكياً شاءت المعجزة أن يكون واحداً لا ثانى له » ويضيف مشيراً إلى تعريف لأندريه چيد للكلاسيكية : « ما من كاتب يمكن أن يُعدّ كلاسيكياً أكثر من ماشادو دي

أسيس »، ويقول عنه وليم ل . جروسمان مترجمه إلى الانجليزية : « ربما كان الكاتب المتحرر من الأوهام بصورة كاملة في الأدب الغربي » ، ويؤكّد والدو فرانك في مقدمته للترجمة الانجليزية لرواية دون كازمورو ، رائعة ماشادو دي أسيس ، أنه كان رائداً للعالم الروائي الذي ألفناه عند مارسيل بروست

وفرانتس كافكا: « الإبهام كجوهر للحياة الإنسانية » . هذه الرواية القصيرة التي رأينا أن ننشرها باسم السراية الخضراء اسمها في الأصل « طبيب الأمراض العقلية » وقد نشرت بالبرتغالية لأول مرة ضمن مجموعة مجموعة قصصية في ١٨٨٢. وفي هذه الرواية (هذه الأنتى - يوتوبيا) القصيرة نلتقى بالجريمة النظرية كأساس ارواية وبالتالي لرؤية للحياة ، ليس كما يطبقها شاب صغير لا حول له ولا قوة يريد أن ينقذ بجريمة واحدة وحيدة هي قتل مرابية عجوز (« إذا جاز أن تُسمّى جريمة »!) حياة إنسان عظيم في تقديره لنفسه لا ينقصه سوى أن يتخطى عقبة بؤسه الراهن بثروة يحصل عليها في الحال (راسكو لنيوكوڤ) ، بل كما يطبقها سيمون باكامارته ، طبيب الأمراض العقلية الرهيب ، المؤيّد من كل سلطة قائمة ، ليمارس على البشر ، كل البشر الواقعين داخل نطاق سلطاته ، نظريته الأولى ثم نظريته الثانية المناقضة تماماً للأولى عن الجنون ، بكل إخلاص العالم لفكرته وباستبعاد أو سحق كلُّ دور لهؤلاء البشر في تقرير حياتهم ومصيرهم ، والنتيجة : شقاء البشر في ظلُّ استبداد من نوع أو آخر . وطوال القرن العشرين ، سيخرج سيمون باكامارته الرهيب ، الذي أبدعه ماشادو في ١٨٨٢ ، من سجن الرواية القصيرة إلى العالم الحقيقي ، عالم البشر ، ومن بلدة « إتاجواي » الصغيرة في البرازيل إلى مساحات شاسعة فوق الكرة الأرضية ليحقق نظرية هنا من وراء قناع ، ونظرية أخرى هناك من وراء قناع آخر ، ونظريات عديدة في مكان واحد مع تغيير الأقنعة ، لتصل مأساة الجريمة النظرية ، التي ربما كانت إطاراً عاماً لحياة الإنسان منذ فجر التاريخ (البشر بوصفهم موضوعاً للتاريخ وأيضاً : فتراناً لتجاربه الجماعية)، إلى أبعاد ومستويات لم تخطر من قبل على بال بشر، nverted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصادر:

- * مقدمة والدو فرانك للترجمة الانجليزية لرواية دون كازمورو ، نيويورك ، ١٩٥٣ .
- * مجموعة قصص قصيرة (بالانجليزية) من أمريكا اللاتينية بعنوان « عين القلب » نيويورك ، ١٩٧٤.
- *مقدمة روچیه باستید لروایة کونکاس بوربا ، ترجمة سامی الدروبی ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ۱۹۲۳ (العدد ۲ من سلسلة روائم الأدب الغربی).
 - * أدب البرازيل للدكتور شاكر مصطفى ؛ سلسلة عالم المعرفة الكويتية «١-١(١٩٨٦) »
- * أدب أمريكا اللاتينية ؛ جزءان ، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد ؛ سلسلة عالم المعرفة الكويتية « ١١٦ (١٩٨٧) ، ١٢٢ (١٩٨٨)».



في هذه الرواية القصيرة نلتقي بالجرعة النظرية كأساس لرواية ، وبالتالى لرؤية للحياة ، كما يطبقها سيمون باكامارته ، طبيب الأمراض العقلية الرهيب ، المؤيد من كل سلطة قائمة ، ليمارس على البشر ، كلّ البشر الواقعين داخل نطاق سلطاته ، نظريته الأولى ثم نظريته الثانية المناقضة تماماً للأولى عن الجنون ، بكل إخلاص العالم لفكرته وبإستبعاد أو سحق كل دور لهؤلاء البشر في تقرير حياتهم ومصيرهم ، والنتيجة : شقاء البشر في ظل إستبداد من نوع أو آخر . وربما كانت الجرعة النظرية إطاراً عاماً لحياة الإنسان منذ فجر التاريخ ، لكنها وصلت طوال القرن العشرين إلى أبعاد لم تخطر من قبل على بال بشر .

سلسلة القصة العالمية تصدرفصلياً عن شركة دار الياس العصرية الكتبالقادمة الكتبالقادمة الشهوارع العارية الشهوارع العارية للكاتب الايطالي فاسكو براتوليني ترجمة ادوار الخراط شهات البريطانية دوريس لسنج ترجمة عنان الشهاوي الماتبة الروسية نينا بربروفا ترجمة أحمد على بدوى مجنون السهون السرقة و قصص أخرى للكاتب المجرى ديسزو كوستولاني ترجمة محمد سيف للكاتب المجرى ديسزو كوستولاني ترجمة محمد سيف

).33

د ب سر